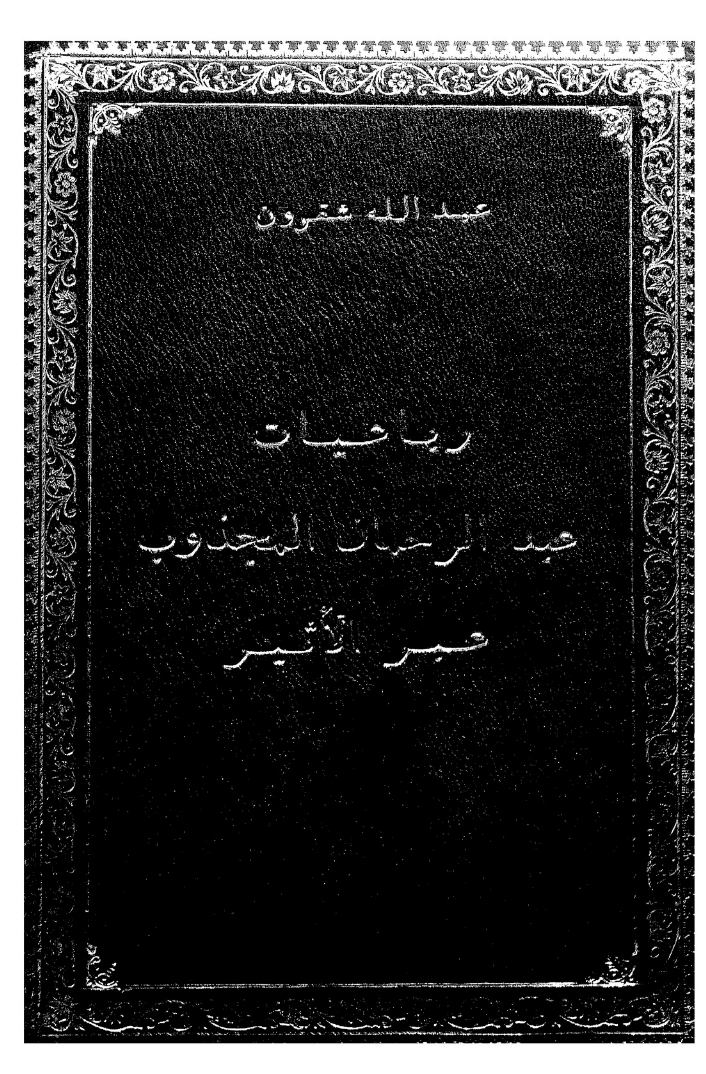
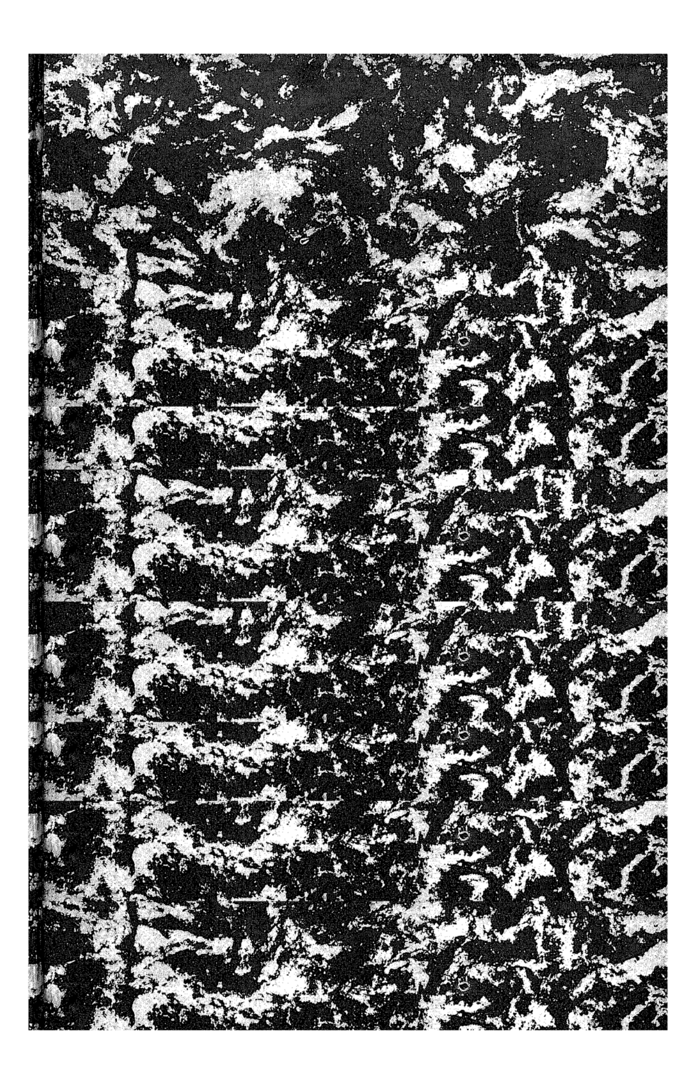

عبد الله شقرون
رباعيات
عبد الرحمان المجذوب
عمر الأثير





عبد الله شقرون

رباعيات عبد الرحمن المجذوب عبر الأثير

رُباعيات عبد الرحمن المجذوب عبر الأثير

تبويب

عبدالله شقرون

بسم الله الرحمن الرحيم

فَصْلَةٌ مُسْتَخْرَجَةٌ مِنْ كِتابِ الْمُؤَلِّف :

الأَدَبُ الشَّعْبِيُّ عَلَى أَمْوَاجِ الإِذَاعَة

الصـــادر في

مَنْشُورات اتحاد إذاعات الدُّول العربيّة

تونس 1987

« الرُّبَاعِيَّاتُ » التي تَعْنِينَا هُنَا مَا هِيَ في حقيقتِها سِـوَى نَمَاذِجَ مِمَّا قَدَّمْنَاهُ عَلَى أَمْوَاجِ الإذاعة ، وكانت موجَّهة ، حينئذ ، إلى جمهور متعوِّد نسبيًّا على الاستماع إلى اللّغة العربيّة الدّارجة وفرائدها التي استعملها صـاحبها في نـظمه . ولهَـذا يَتعيّن ، وَالحَالة هَذِه ، القِيام بشَرح بعض ما قد تـدعو الضّـرورة إلى شرحِه .

وَقَـدْ تَكُـونُ « الرُّبَـاعيّـاتُ » مَلِيئَـةً بِـالْحِكَمِ والْمَـواعِـظ والتَّأَمُّلَات ، كَمَا يُمْكِنُ أَنْ تَتَنَاوَلَ مَوْضُوعًا غَراميًّا . لَكِنَّ مَجْمُوعَةَ الشَّاعِرِ عَبْد الرَّحْمَن المجذوب التِي قدّمناها عَلَى أَمْوَاج الإذاعة ونَنْشُـرُها تُعْتَبَـرُ فِي مُجْمِلِها مِن النَّـوْعِ الذِي يُخَـاطِبُ الْفِكْـرَ والْعَقل ...

اَلرُّبَاعِيَّـاتُ ، مَا هِـــي ؟

« **الرُّباعِيَّاتُ** » جَمْعٌ لِمُفْرَدٍ هو « **الرُّبَاعِيّ** » .

و« **الرُّبَاعِيُّ** » عِبَارَةٌ عَنْ أَرْبَعَةِ أَشْطارٍ يَتَكَـوَّنُ مِنْهَا مَقْـطَعٌ مَنْظُومٌ وَمُتَكامِلٌ في مَبْنَاهُ وَمَعْنَاه ، وتُكَوِّنُ هَذِهِ الأَشْطَارُ فِيمَا بَيْنَهَا بَيْتَيْنِ اثْنَيْنِ مِن الشِّعر ...

وَيُمْكِنُ أَنْ يُقَالَ أَيْضًا « **الرُّباعِيَّة** » ـ بِـالْمُؤَنَّث ـ بَـدَلاً عَن « **الرُّباعِيّ** » ـ بِالْمُذَكَّر ـ .

وَلَعَلَّ أَشْـهَرَ « **رُباعِيَات** » فِي الأَدَبِ هِي « **رُباعِيّاتُ** » الشَّاعِرِ الْمُفَكِّر **عُمَر الخَيَّام** الذِي عَاشَ فِيمَا بَيْنَ الْقَرْنَيْنِ الحَـادِي عَشَرَ والثَّانِيَ عَشَرَ للميلاد . وقـد نَقَلَها أَكْثَـرُ مِن واحِدٍ ، مِن لغتِهـا الأَصْلِيّة ، الْفَارِسيَّة ، إِلَى اللُّغةِ العربيّةِ فِي الْعَصْر الحديث ، كَمَا نُقِلَت إِلَى عَددٍ من اللُّغات الأجنبيّة .

فَهَذَا اللَّوْنُ مِن الأَدَبِ الرَّفيعِ قَدْ عَرَفَهُ أَيْضًا الأدبُ الشَّعْبِيُّ بَلْ وَعَرَفَهُ مُبْتكرًا أَصِيلاً فِي اللُّغةِ الْعربيَّةِ الدَّارجة ، وَتَناقَلَهُ الآباءُ عن أَجْدادِهم خَلَفًا عَن سَلَف مُمَثَّلاً بالخصوص في « **رُباعيَاتِ** » الْحَكِيم النَّـاقِـدِ السَّـاخِـرِ والشَّـاعِـرِ الْجَـوَّال **عبـد الرحمن المجذوب** ... وَقَدْ اشْتَهَرَ بصفةٍ خَاصَّةٍ فِي رُبوعِ مَنْطَقَةِ الْمَغْرب العربيّ ، مِن **المغرب** ـ مَوْطِنِه ـ إِلَى **الجَزائِر** و**تُـونُس** ، وعلى مَدَى عَدِيدِ السِّنِينَ مُنْذُ الْقَرْنِ السَّادسَ عَشَرَ الميلاديّ إِلَى اليوم .

تَرْجَمَة :

اَلْعَامَّةُ تَدْعُوه بـ سيِّدي عَبْد الرَّحْمَن المجذوب . وكَلِمَةُ « سيِّدي » في المغرب لا تُطْلَقُ إلاَّ عَلَى الأَشْـرَافِ الذِينَ يَرْتَقِي نَسَبُهم إلى ذُرِّيَّة فَاطِمَةَ الزهراء . ويبدو أنَّه كانَ يُلِحُّ عَلَى التَّمَسُّكِ بِهَذَا النَّسَب ويتشبَّث به . وَمَعَ الْعِلْمِ بِأَنَّهُ كَان من المغرب مَحْتِدًا وَمَوْلِدًا ونشْأَةً وتعلّمًـا ، إلَّا أنَّه ، في هَـذَا الصدد ، يَقُـولُ إِنَّ أَجْدَادَه الأَشْرَاف ـ أو الشُّرَفَاء ـ قَدِ انْحَدَرُوا مِن تـونس إلى المغرب ، وَفي ذَلك يقول :

أَصْـلِي مِـن تُـونَسْ الْخَـضْـرَا ** واللِّي عَنْـدُه نَسَبْ يـدَوَّرْ عْليـه
انـا وَلد فـاطِمَـه الزُّهْـرا ** والكَـاذَبْ لَعْـنَـةُ الله عْـلِيـه

أَمَّا مَوْلِدُه فَقَدْ كَانَ فِي بَلْدَةِ طِيط التِي لَيْسَتْ بِعِيدةً عَن مَدِينَتَيْ أَزَمُّور و البريجة (الجديدة) في المغرب . وَفِي هَذَا المِضْمَارِ يَقول :

جِـيـتْ مَـن طِيـطْ بَـالْـعَـجْـلَه ** والشَّرْ زَادْنِـي شـغْلَانِـه
الْخُـبْـز دَخْـلُـه الجَصْ ** عـلاش يـا طالبْ ذَا الْقـرَايـه

وإِذَا عَلِمْنَا أَنَّهُ انْتَقَلَ عَنْ عَجَلٍ وَفي سِنٍّ مُبَكِّرةٍ من بَلْدَةِ طِيط إِلَى مَدِينةِ مكناس رُفْقَةَ وَالِدِهِ ـ وَقِيلَ إِنَّهُ كَانَ حِينَئِذٍ ابْنَ أَرْبَعِ سَنَوات ـ وإِذَا عَلِمْنَا أَيْضًا أَنَّهُ قَدْ دَرَسَ عَلَى النُّخْبَةِ مِنْ فُقَهَائِها وَمُدَرِّسِيها ، وَتَفَتَّحَتْ قَرِيحَتُهُ فِي الشِّعْرِ والتَّوْجِيـهِ وَهُوَ طَالِب ، أَدْرَكْنَا مَفْهُومَ الشَّطْرِ الأَوَّلِ مِنَ الْبَيْتِ الأَوَّلِ فِي ذَلِكَ الرُّبَاعيّ : « جِيتْ من طِيط بَالْعَجْلَة » ، أي عَنْ عَجَل . لَكِنَّهُ ، عَـلَى ما يَبْدُو ، لم يَلْقَ ، هُنَاكَ ، فِي عَمَلِهِ التَّوْجِيهيِّ والتَّوْعَوِيِّ إِلاَّ التَّعَبَ

الذي زَادَهُ بُؤْسًا وَمَشقَّةً ـ **شْطَايه** ـ إِلَى جَانِبِ أعْبَاءِ الدَّرْسِ والتَّحْصِيلِ وَمُوَاجَهَةِ الْحَيَاة ـ وكَلِمَةُ « **شطايه** » هَذِهِ قَدْ تُفِيدُ هُنَا مَفْهُومَ الْمَشَقَّةِ والْبُؤْسِ والتَّعَب . ثُمَّ إِنَّهُ يَرْمُزُ إِلَى مَا يُفِيدُ أَنَّ الزَّمَنَ قَدْ فَسَدَ حِينَئِذٍ ، وَذَلِكَ مِن خِلَال تَعْبِيره : « **الْخُبْز دَخْلُه الْجَصّ** » . وَمَا عَلَيْنَا إِلاَّ أَنْ نَتَصَوَّرَ خُبْزًا اخْتَلَطَ بِالتُّرابِ وغُبَارِ الْجِبْس ... ويَبدُو كذَلِكَ أَنَّهُ أَصْبَحَ إذ ذَاك لا يَسْمَعُ مِنْ مُعاصِرِيهِ إِلاّ التَّثْبِيطَ تِلْوَ التثبيطِ ، وكَـأَنَّهم جميعًا يَقُـولُونَ له : لا تُتْعِبْ نَفْسَك مَعنا بِالْمَوْعِظَةِ وَالتوجيه أَيُّها الطَّالِب : « **علاَشْ يَاطَالَب ذَا الْقَرَايَه** ؟ » . فَكَأَنَّما كان ، والحالةُ تلك ، مِثْلَ داوود الذِي كَانَ يَتْلُو زَابُورَهُ ولاَ يَسْتَمِعُ إِلَيْهِ احد .

وانْتَقَلَ **عَبْدُ الرَّحْمن المجذوب** إِلَى مدينــة **فاس** ، والْتَحَقَ بمجالِسِ العِلْمِ والأدب بِجَامِعِ **الْقَروِيِّين** فِيها . وَقد ظَلَّ وفيًّا كَأَحْسَنِ مَا يَكُونُ الْوَفَاءُ لتلك المدينةِ ولِطَيِّبِ ذِكْرَاها ، فَقَالَ عَنْهَا فِي رباعيٍّ من رُباعِيَّاتِه :

الطَّبْـخ والرَّمْـخ فِـي فَـاسْ ** وَالعِـلْـم والدِّيـن فِـيـهَـا
لاَ عَـيْـب يَـتْـقَـال فِي فَـاسْ ** مَـحْـمُـولَه مَـنْ كُـل جِـيـهَـا

وَكَلِمَـةُ « **الرَّمخ** » تَعْنِي الأَشْجَـارَ الْمُتَجمِّعةَ والْمُلْتَفَّـةَ فِيمَـا بَيْنَهَا . أَمَّا تعبيرُ « **مَنْ كُلْ جِيهَا** » فَيَعْنِي « **مِنْ كُلِّ جِهَة** » ، أي إِنَّ مَدينةَ **فاس** ، كَمَا يقول ، قد جَمَعتْ شَتَّى المحَاسِن والْمَزَايَا .

وَهُنَاك رُبَاعِيَّاتٌ كَثِيرةٌ لِهَذَا الشَّاعِرِ الحكيمِ تُسَجِّلُ مَـرَاحِلَ مُتَعدِّدةً من تَاريخِ حياته ، وَتَتَجَلَّى عَبْرَهَا الْمِحَنُ وَالأَهْوَالُ التِي جَابَهَهَا فِي تِلْكَ الْفَتْرَةِ الصَّعْبَةِ التِي اجْتَازَها هَذَا الْجَنَاحُ الْغَرْبِيُّ مِن الْوَطَنِ الْعَرَبِيّ وَهُوَ يُواجِهُ تلك الْهَجْمَةَ الاستعماريَّةَ الأُوروبِّيَّةَ عَلَى شواطِئِه وتُرابِه ، فَتْرَة الْقَرْنِ السَّادِسَ عَشَرَ الميلاديّ .

المجـــذوب :

وَيَتَعَيَّنُ بَادِيءَ ذِي بَدْءٍ الإلْمَاعُ إلَى لفظ « المَجْذُوب » المُثْبَتِ في اسْمِ هَذَا الشَّاعرِ لِلتَّأْكِيدِ عَلَى أَنَّ هَذَا الْوَصْفَ قَدْ يَعْنِي مَفْهُومَ الشَّخْصِ الذِي « تَجْذِبُهُ » الأنْغَامُ وَرَنَّاتُ الطُّبُولِ والمَزَاهِرِ ، فَيَتَراقَصُ بِرَأْسِه مُهْتَزًّا ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمال ، ومِن شِدَّةِ تَأَثُّرِهِ وانْغِمَاسِهِ فِي حَالَةِ « الْجَذْب » هَذِهِ يَكَادُ يَخْرُجُ عَنْ وَعْيِه « مُتَحيِّرًا » وَنَاطِقًا بِآهَاتٍ وَأقْوال ...

ولاَ يَعنِي لفظ « المجذوب » مـدلول المجنُون أو المخبُـول ، فذلك غير صَحيح .

وَقد قَالَ الشَّاعِرُ عَبْدُ الرَّحْمَن الْمَجْذُوب هُوَ نَفْسُه مَا يُوضِّحُ هَذَا الْبَيانَ حَيْثُ قَالَ فِي رُبَاعِيٍّ مِنْ رُبَاعِيَّاتِه :

مَـجْـذُوبْ مَـا أنَـا مَجْـنُـونْ ** غِـيرْ الأحْـوَالْ دَارَتْ بِـيَّ
أقْـرِيـتْ فِي اللُّوحِ المَحْـفُـوظْ ** والسَّـبْـقَـه سَـبْـقَـتْ لِـيَّ

إنَّهُ لَيْسَ مَجْنُونًا ، مَعَاذَ اللَّه ، لَكِنَّـهُ « مَجْذُوب » . ويُفَسِّرُ صِفَةَ « المَجْذُوب » هَذِهِ بِأَنَّ هَذَا الْوَصْفَ حَصِيلَةُ التَّطَوُّرِ الذِي حَصَلَ لِفِكْرِهِ وَتَفْكِيره ، وأنَّهُ هِبَةٌ رَبَّانِيَّةٌ ، و« سَابِقَةٌ » فِي عِلْمِ اللَّه ... وَقد تَفتَّحتْ تَأمُّلاَتُهُ عَلَى مَا لَمْ يُتَحْ لِسِوَاه ... إنَّه يَعْتَقِدُ أنَّ « رُؤَاهُ » التِي اشْتَمَلَتْ عَليها بَعْضُ أقْوَالِهِ لاَ يُمْكِنُ أنْ تَصْدُرَ إلاَّ عَنْ شَخْصٍ قَرَأَ ، أو كَأنَّهُ قَرَأَ ، بَعْضَ ما فِي الْغَيب ، بَعْضَ مَا فِي اللَّوحِ المَحْفُوظ ... وَهَذَا كَلاَمُ شَاعرٍ بِطَبِيعةِ الحَال ، كَلاَمُ رَجلٍ « مَجْـذُوب » ، رَقِيقِ الْحَاشِيَـة ، مُرْهَفِ المشـاعِر ، اسْتَقْـرأَ تَجارِبَ الْحَيَاةِ وَعَجَمَ عُودَها ...

بَعْدَ هَذَا التَّمْهِيدِ نَسْتَعْرِضُ فِيمَا بَيْنَنَا دِيـوانَ هَذَا الشَّـاعِرِ الشّعبيِّ الحكيمِ تَحْلِيلًا وَتَعْلِيقًا جَهْدَ الإمْكَان ... وَقـد أَعَدْنَـا الكِتابةَ والتدوينَ لِمَا كُنَّا قدَّمْنَاهُ في الإذاعة بِهَذَا الصَّدَدِ تَسْهِيلًا لِلْقِرَاءَةِ والتَّأَمُّل ...

أَمَـارَةُ الْـكَذَّاب :

وَهَكَذَا فَمِمَّا اسْتَمَدَّهُ الْحَكِيمُ **عَبْدُ الرَّحمن المجذوب** واسْتَقَاهُ واسْتَفَادَهُ مِنْ تَجَارِبِهِ الشَّخْصِيَّـةِ التَّمْيِيزُ الْفَـاحِصُ بَيْنَ الشَّخْصِ الذِي يُـرْجَى مِنْ تَصَرُّفَاتِهِ الخَيْرُ وَيَبْدُو عَلَيْهِ الصِّدْقُ ، وبَيْنَ سَيِّءِ النِّيَّةِ الْكَذَّابِ الذي يَعِدُ وَلَا يَفِي بِوَعْدِه ... يَقُول **عبد الرَّحمن المجذوب** في هذَا الصَّدَد :

الآجْـوَادْ مـا يْـقُـولُـوا : لَا لَا ** وَحْـدِيـثْـهُـم خْـطَا وصْـوَابْ

إذَا قَـالْ لَكْ رُحْ وتْـعَـالَا ** هَـذِيـكْ مَـارَةْ الْكَـذَّابْ

إِنَّ مَفْهُومَ هَذَا الرُّبَاعيِّ وَاضِح . وَمَدْلُولُه أَنَّ الناسَ الطَّيِّبين ـ الأجواد ـ لَا يَرْفُضُونَ عَمَلَ الْخَيْر ، وَلَا يَرُدُّونَ طَلَبًا ... نَعَمْ ، إِنَّهُم قد يُخْطِئُون ، لكنَّ خطَأَهُمْ يَكُونُ مَقْبولًا لِأَنَّه صَادِرٌ عن حُسْنِ نِيَّة ، ولِأَنَّهم يُدْرِكُونَ الصَّـوَابَ مِرَارًا . أَمَّا مَنْ يَعِدُ غَيْرَه بِقَوْلِهِ : اِذْهَب الآنَ وعُدْ إِلَيَّ مَرَّةً أُخْرَى ، وَيُكَرِّرُ عَلَيْهِ نَفْسَ الْمَوْقِف ... فَإِنَّ تَصَرُّفَهُ أَمَارَةُ (مارة ، في الدارج) ، أَيْ عَلَامَةٌ أَكِيدَةٌ عَلَى أَنَّه كَذَّابٌ أَشِرٌ وَلَا يُرْجَى مِنْهُ الْخَير !

نِسْيَانُ الْجَمِيـل :

وَيَقُولُ عَبْدُ الرَّحمن المجذوب :

أَقْـبض الأُجْـرَه قْبَـل الـذوَا **** واتْـرَكْ عَـليـك خْـدِيثْ الَهْـوَى
الْمَـرِيـضْ رَاهُ إِذَا بْـرَا **** يَـنْـسَى خْـيـرْ الْمـدَاوِي

بِخِلَافِ مَا يَقُولُهُ المَثَلُ العَامِّيُّ مِنْ أَنَّ « **تَسْبِيق الأُجْرَه مِنْ تَبْطَال الْعَمَل** » فَإِنَّ هَذَا الْحَكِيمَ ، وَبناءً على تَجْرِبَتِهِ فِي الْمُعَاشَرَةِ ، يَرَى أَنَّ الناسَ سَرْعَانَ مَا يَنْسَوْنَ الْجَمِيلَ الذِي يُقدَّمُ إِلَيْهِم ، ويَتَنَكَّرُونَ حَتَّى لِلشَّخْصِ الذِي صَنَعَ الْمَعْرُوفَ مِنْ أَجْلِهِم ، وَلِذلك فإِنَّ الشَّيْخَ الْحَكِيمَ يَأْمُرُ ـ فِي كُلِّ حَالةٍ ـ بِقَبْضِ الْمُقَابِلِ مُسَبّقًا وَبِعَدَمِ الإِخْلادِ لِلْكَلَامِ الْمَعْسُولِ ... الْفَارِغِ (خْدِيث لَهْوَى) .... وَلَعَلَّ هَذِهِ نَصِيحَةٌ إِلَى « **الأَطِبَّاءِ** » مِنْ كُلِّ صِنف ...!

الثَّرْثَرَةُ والصَّمت :

ولَفْظُ « **الدَّوَّاي** » في العربيـة الدَّارجة يَعْنِي « **الثَّـرْثار** » . وَفِي اللُّغـةِ العربيّةِ الْفُصْحَى يُفِيدُ فِعْلُ دَوَى مَعْنَى سُمِعَ لَهُ صَوْتٌ مُدَوِّيّ ، وَغَالِبًـا مَا يَخْتَصُّ بِالرَّعْدِ ، وَكَذَلِكَ لَفْظُ « **الْهَدَّار** » مِنْ فِعْلِ هَدَر ، أي صَوَّتَ ـ فِي نَفْسِ الدّارجَة ـ فَإِنَّهُ يَعْنِي مَفْهُومَ « **الثَّرْثَار** » عِلْمًا بِأَنَّ صِيغَةَ الْمُبَالَغَةِ « هَدَّار » تَلْتَصِقُ بِالرَّعْدِ أَيْضًا ، فَيُقَال : **رَعْدٌ هَدَّار** ، أيْ شَدِيدُ التَّصْـوِيت ... وقَدِ اسْتَعْمَلَ الشاعِرُ **عَبْدُ الرَّحْمَن المجذوب** هَذَا اللَّفْظَ وَذَاكَ فَأَشَارَ إِلَى أَنَّ « **كُلَّ دَوَّاي** » أو « **كُلَّ هدَّار** » مَسُّوس ، أَيْ نَاقِصُ مِلْحًا وَبِالتَّالِي ثَقِيلُ الظِّلّ ، وَذَلِكَ فِي الرُّباعيِّ التالي :

كُـلْ هَـدَّارْ مَسُّـوسْ **** يْـجِـيـبْ الَـهْلِيـكَـه لْـرَاسُـه

وَيَسْتَهَل ضَرْبَه بْمُوس ** حَتَّى يِبَانُوا اضْرَاسُه

وَالْمَدْلُولُ الْعَامُّ لِذَلِك الرُّبَاعِيِّ أَنّ الثَّرْثَارَ يَتَسَبَّبُ لِنَفْسِهِ فِي الْهَلَاك ، وَيَسْتَحِقُّ شَدِيدَ الْعِقَاب : يَسْتَحِقُ أَنْ يُضْرَبَ بِمُدْيَةٍ (بْمُوس) حَتَّى تَبْدُوَ ضُرُوسُه ...

وَمَا دَامَ الْبَلَاءُ مُوكَّلًا بِالْمَنْطِقِ فَإِنَّ هَذَا الْحَكِيمَ يَقُولُ فِي رُباعيٍّ آخر :

الصَّمْت حِكْمَة ** ومَنُّه تَتْفَرَّقْ الحْكَايَمْ
لَومَا نْطَقْ وَلْد اليَمَامَة ** مَا يْجِيهْ وْلِيَّد الحْنَش هَايَمْ

الْيَمَامَةُ هِيَ الْحَمَامَةُ الْبَرِّيَّة ... وَمَعْلُومٌ أَنَّ اليَمامَةَ الصَّغِيرَةَ كَثِيرَةُ التَّصْويت ، وَلَوْلَا تَصْوِيتُهَا هَذَا مَا كَانَ الحَنَشُ الصَّغِيرُ ـ الْحَيَّةُ الصَّغِيرة ـ لِيَسْمَعَها وَبِالتَّالِي لِيَقْصِدَها وَهِيَ فِي عُشِّها جَاثِمةٌ فَيَلْتَهِمَهَا الْتِهَامًا ... وَكَمَا يَقُولُ الْمَثَلُ الشَّعْبِيُّ : « **الْفَم الْمَسْدُود مَا تَدْخُل لُهْ دبَّانه** » ... إِنّ الصَّمْتَ حِكْمَةٌ وَمِنْهُ وعَنْهُ تَتَوَالَدُ شَتّى الحِكَمِ وَالْمَزَايَا .

وَفِي التَّوْصِيَةِ بِالصَّمْتِ وَمَدْحِهِ يَصِفُ **عَبْدُ الرَّحمن المجذوب** الصَّمْتَ بِأَنَّهُ « **ذْهَبْ مْشَحَّر** » ، أي ذَهَبٌ خَالِصٌ وَرَفِيعُ الْقِيمَة ، وَبِأَنَّ الأَسْلَمَ لِلْإنسانِ هُوَ كِتْمَانُ الأَسْرَارِ وَعَدَمُ الدُّخُولِ فِي الْفُضُول ، والْتِزَامُ الْجَهْلِ بِمَا قَدْ يَكُونُ عَلَى بَالِهِ فِي هَذَا الصَّدَد :

الصَّمت ذْهَبْ مْشَحَّر ** والكْلَامْ يَفْسَد المْسَالَة
إِذَا شَفْتِ لَا تْخَبَّر ** وإذا سَالُوك قُلْ : لَا لَاهْ

ويَصِفُ هَذَا الشَّاعِرُ الثَّرْثَرَةَ بِلَا مَعْنىً ولا رَأسٍ ولَا ذَنَبٍ (**الهذرة**) ، أي الْكَلَامَ الْفَارِغ ، بِأَنَّها مِثْلُ مَنْ يَمْشِي حَافِيًا مُعرِّضًا قَدَمَيْهِ وَنَفْسَهُ لِكُلِّ أذى ، كَمَا أَنَّ النُّطْقَ فِي الْفَرَاغِ إِنَّمَا هُوَ عَمَلٌ شَبِيهٌ بِالْمُبَالَغَةِ فِي الشُّرْبِ عَلَى الطَّوَى ،

عَلَى الْجُوع ... وَهَذِهِ مِنْهُ حِكْمَةٌ أُخْرَى فِي تَجنُّبِ الثَّرْثَرةِ والْقِيلِ والْقَالِ مِنْ غَيْرِ دَاعٍ ولا مُوجِب :

الْـهَـذَره بْـلَا مَـعْـنَـى ** كَـالِّي يَـمْـشِـي بَـالَـخْـفَـا

والنُّـطْـق غْـلَـى الَـهْـوَا ** كـالِّي يَشْـرَبْ عـلَى الَـخْـوَا

الأُرْجُــوحَــة :

وَيَنْدَمِجُ الشَّاعِرُ الشَّعْبِيُّ الْحَكِيمُ انْدِماجًا كُلِّيًا فِي الْحَيَاةِ العَامَّة . وَمَهْمَا تَكُنْ صُعوبَةُ فَهْمِ بَعْضِ الْمُفْرَدَاتِ والأَلْفَاظِ والجُمَلِ بِالنِّسْبَـةِ لِلْمُستمعاتِ والْمُسْتَمِعِينَ الذِين لَيْسُوا مُتَعوِّدِينَ عَلَى سَماعِ تَراكِيبِها وخاصَّةً مِنْ خِلَالِ الإِذَاعة ، فإِنَّ كَلَامَ هَذَا الشاعِرِ بَسِيطٌ فِي مَظْهَرِهِ بِصِفَةٍ عَامَّة ، لَكِنَّهُ فِي جَمِيعِ الأَحْوَالِ عَمِيقٌ ... وَعَمَلِيّ ...

فَلْنَنْظُرْ ، مَثَلًا ، فِي مَوْقِفِهِ من « **النَّاعر** » . وَهَذَا اللَّفْظُ ـ **النَّاعر** ـ يَعْنِي فِي الدَّارِجَةِ العامّيّةِ الشَّخْصَ الْمُتَقَلِّبَ الذِي لَا يَسْتَقِرُّ عَلَى حَالٍ ... أَيْ صَاحِبَ « **النَّوَاعر** » ، وَهِيَ الأُرْجُوحَاتُ الْمَعْرُوفَةُ بِتَقَلُّبِهَا . وَمَدْلُولُ « **النَّاعر** » أَيْضًا هو الشَّخْصُ السَّرِيعُ الْغَضَبِ تَمَامًا كَمَا تُسْرِعُ **النّواعر** ـ الأُرْجُوحَاتُ ـ فِي حَرَكَتِها . إِنَّ الحكيمَ **عَبْدَ الرَّحْمن المجذوب** يُحَذِّرُ مِنْ مُعَاشَرةِ « **النَّاعر** » ، كَمَا يُوصِي بِعَدَمِ الضَّحِكِ عَلَى الأَصحابِ أَو السُّخْرِيةِ بِهِمْ فِي الْمُعَامَلَات :

الـصَّـاحَـبْ لَا تْـلَاغْـبُـو ** والنَّـاعَـرْ لا تْـفُـوتْ غْـلِـيـهْ

اللِّي حَـبَّـكْ حَـبُّـو اَكْـثَـرْ ** واللِّي بَـاعَـكْ لَا تَـشْـرِيـهْ

الثُّلَاثِيُّ الْمَذْمُوم :

إِنَّ المَرأَةَ التِي لَا تَفْتُرُ عَن الصِّيَاحِ والتَّشَكِّي والنُّوَاح ، والْبَقَرةَ التِي لا

تَفْتُرُ عَنِ الخُوارِ المُزْعِجِ صَبَاحَ مَسَاء ، والْكَلْبَةَ التِي تَنْبَحُ بِسَبَب أَوْ بِغَيْرِ سَبَب وتُقْلِقُ رَاحَةَ النَّاسِ : هَذِهِ الأَصْنَافُ الثَّلاَثَةُ جَعَلَها الْحَكِيمُ الشَاعِـرُ ـ عَنْ تَجْرِبَةٍ ومُلاَحَظَةٍ ـ فِي كِفَّةٍ وَاحِدَة : إِنَّها جَمِيعًا لاَ خَيْرَ فِيهَا ، ولاَ ربْحَ يُرْجَى مِنْ وَرَائِها ، والأَفْضَلُ التَّخَلُّصُ مِنها :

الْـمـــرَاه الـنَّـايْـحَـهْ ** والْـبَـقْــرَه الصَّـايْـحَـهْ
وَالْـكَـلْـبَــه الـنَّـابْـحَـهْ ** مَــا فِـيـهُـم مْـرَابْـحَــه

الأُخُـــوَّة :

وَتَقْدِيسًا لِلأُخُوَّةِ وَمَتَانَتِهَـا بَيْنَ الأَخَـوَاتِ والإِخْوَةِ أَبْنَـاءِ الأُمِّ يَرَى ذَلِكَ الْحَكِيمُ أَنَّ هَذِهِ الأُخُوَّةَ أَقْوَى مِنْ أَيَّةِ رَابِطَةٍ عَائلِيّةٍ كَيْفَمَا كَانَتْ . فَلاَ الْخُؤُولَةُ وَلاَ الْعُمُومَةُ أَو سِوَاهُمَا تُعْتَبَرُ فِي مَنْزِلَةِ قُوَّةِ التَّرَاحُمِ والتَّعَاطُفِ التِي عَلَيْهَا الأُخُوَّةُ الطَّبِيعيّة ... لقد نَادَى عَلَى الْخَالِ (**عَيَّـطت**) وَعَلَى الْعَمِّ ... فَمَـا ازْدَادَ مِنْهُمَا إِلَّا هَمًّا وَكَمَدًا ، وَنَادَى عَلَى أَخِيهِ ابْنِ أُمِّهِ (**خويا**) فَقَطَعَ الْبِحَارَ واجْتَازَ الأَهْوَالَ والْمَسَافَاتِ لِأَجْلِ الْقُدومِ والاِسْتِجَابَةِ لِنِدَائِه :

عَـيَّـطت عْـلَى خَــالِـي خُـوَانِـي ** عَـيَّـطت عـلى عَـمِّـي غْـمَـانِـي
عَيَّـطـت عـلَى خُـويـا اِبْنْ امِّـي ** قْـطَـعْ الـبْـحُــوزْ وَجَـانِـي

الْبَشَـاشَـــة :

وَيُوصِي فِي حِكْمَةٍ أُخْرَى ، فِي رُبَاعِيٍّ آخر ، بِحُسْنِ الْمُعَاشَرَةِ التِي قِوَامُهَا حُسْنُ الجِوَارِ بِشَتَّى مَعَانِيه . فَإِذَا كَانَ مَحْكومًا عَلَيْكَ أَنْ تُعاشِرَ أَحدًا وتُصَبِّحَ عَلَيْهِ دَوْمًا ـ **تْصَابْحُو** ـ فَمَا عَلَيْكَ سِوَى السَّيْرِ بِالْحُسْنَى مَعَ هَذَا الْمَخْلُوق ... مَعَ هَذَا الْوَجْهِ . فَإِيَّاكَ ثُمَّ إِيَّاكَ أَن تُقابِحَهُ ، أَيْ كَمَا فِي فَصِيحِ اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ

ـ أَنْ تُشَاتِمَهُ ـ **ما تْقَابْحُو** ـ... وَعَلَيْكَ بِبَشَاشَةِ الْوَجْهِ الذِي هُوَ عُنْوَانُ حَيَائِكَ : وَإِيَّاكَ والغِلْظَةَ أَو الصَّلَفَ مَعَه :

الـوْجَـهْ اللِّـي تْـصَابْـحُـو ** مَـا تْـقَابْـحُـو

والوْجَـهْ اللِّي تـسْتَـحْـيَـا بِـهْ ** قَـابَـلْ بـه

المَـالُ وَالْجَـاه :

نَعَمْ ،لَقَدِ احْتَكَّ الشَّاعِرُ **عَبْدُ الرَّحْمن المجذوب** بِوَسَطِهِ احْتِكَاكًا مُبَاشِرًا ، وَعَرَفَ النَّاسَ عَلَى حَقِيقَتِهِم فِي زَمَنِه ، وَعَجَمَ عُـودَهُمْ في أَنْحَاء مُتَعَـدِّدَةٍ مِن الْبُلْدَانِ العربيَّة : في **تُونس** كَمَا فِي **الجزائر** ، وَفي **المغْرب** ، مَوْطِنِهِ ، طُولاً وَعَرْضًا ... وَأَتَاحَتْ لَهُ فُرْصَةُ الْحَجِّ تَمْدِيدَ تِجْوالِهِ فِي الْبُلْدَانِ وَمَعْرِفَةَ فِئَاتٍ شَتَّى مِن الْعِبَاد ، وَهُوَ ذَلِكَ الْمُتَصَوِّفُ الزَّاهِد ، والشَّاعِرُ النَّابِه ، والْفَقِيرُ المُتَعَفِّف ، والْمُحْتَاجُ دَوْمًا ، وَفِي حَيَاءٍ ، إِلَى مُسَاعَدَةِ الآخَرِين ... فَكَانَ مِنْ نَتِيجَةِ تَجَارِبِهِ هَذِهِ مَا ظَلَّ مُسَطَّرًا مُتجلِّيًا في ثَنَايَا رُباعيَّاتِهِ ، ناطِقًا بِالْحَقِيقَةِ الْبَشَرِيَّةِ وَبِوَاقِعِ الْحَيَاةِ وَلاَ سِيَّمَا إِزَاءَ الْفَقْرِ وَالغِنَى وَنِفَاقِ الْمُجْتَمع ... إلى دَرَجَةِ أَنَّهُ يَرَى أَنَّ الْمَالَ قِوَامُ كُلِّ أَخْلاَقِ الْمُجْتَمَع ...

إِنَّ الْبَنَاتِ مَهْمَا كَانَتْ مُيُولُهُنَّ فَإِنَّ أَكْبَرَ مَيْلٍ لَهُنَّ ، أَيْ أَعْظَمَ حُبٍّ لَهُنَّ ، إِنَّمَا هُوَ نَحْوَ الْمَال ، وَبِالتَّالِي لِمَنْ عِنْدَه الْمَال ... فَيَقُول :

الْـمَـال يَـا الْـمَـالْ ** لِيـلُو الـبْـنَـاتْ مَـالُـو

واللِّي مَـا عَـنْـدُوشِي الْمَـالْ ** مَـا يَعْمَـلْ حَـتَّى كَـلْبِي بْـحَـالُو

وَلَفْظَةُ « **لِيلُو** » تَعْنِي « إِلَيْهِ » أَو « نَحْوَه » ، أَيْ « إِنَّ المالَ إِلَيْـهِ (أو نَحْوَهُ) الْبَنَاتُ مِلْنَ . أَمَّا كَلِمَةُ « **بْحَالُو** » فَتعْنِي « مثْلَه » أي « حَتَّى كَلْبِي لاَ يَعْمَلُ « مِثْلَه » ، أَيْ مِثْلَ مَنْ لَيْسَ لَهُ مَالٌ

وَعَلَى نفس هَذَا النَّسَقِ مِن التَّأَمُّلِ يَتَحَدَّثُ الشَّاعِرُ الحَكِيمُ عَنْ نَظْرَةِ الْمُجْتَمَعِ إِلَى مَنْ لَيْسَ بِيَدِهِ مَتَاعُ الدُّنْيَا وَلاَ يَمْلِكُ شَرْوَى نَقِيرٍ ، وَهُوَ يَدْعُو هَذِهِ الْحَالَةَ بِـ « **قَلَّةُ الشَّيِّ** » ، وهي تَعْنِي انْعِدَامَ الْمَالِ تَمَامًا ، أَي الْفَقْرَ الْمُدْقِعَ ، وَيَقُولُ إِنَّ هَذِهِ الْحَالَةَ تَنْخُرُ الْعِظَامَ وتَهْدِمُ الْكَرامَة ، ويُعَبِّرُ عَنْ ذَلِكَ بِـ « **قَلَّةْ الشَّيْ تْرَشِّي** » ، بِحَيْثُ تَحْمِلُ صَاحِبَها أَو الْمُتَّصِفَ بِهَا عَلَى الإِنْزِواءِ والإِبْتِعَادِ عَنِ الْجَمَاعَة ، جَمَاعَةِ ذَوِي الْجَاه ، جَمَاعَةِ الْمُجْتَمَع ... وذَلِكَ مَا اشْتَمَلَ عَلَيْهِ رُبَاعِيُّهُ التَّالي :

ضَـرَبْـتْ كَـفِّـي بْـكَـفِّـي ** وخَـمَّـمْـتْ فَـالأَرض سَـاعَـةْ

صَـبْـت قَـلَّـةْ الشَّـي تْـرَشِّي ** وتْـنَـوَّضْ مَـن الْجْـمَـاعَـةْ

وَكَلِمَةُ « **تْنَوَّضْ** » : تُرْغِمُ عَلَى الْقِيَامِ ، وَتَعْبِيرُ « **وَتْنَوَّضْ مَن الْجْمَاعَةْ** » يَعْنِي : وتُرْغِمُ عَلَى الْقِيَامِ والانْسِحَابِ مِنْ جَمَاعَةِ النَّاسِ وَمِن الْجُلُوسِ بَيْنَهم ... وَقَبْلَها كَلِمَةُ « **صَبْت** » تَعْنِي : وَجَدْتُ ، أَي تأكَّدْتُ مِن أَنَّ الْفَقْرَ يُحِيلُ صَاحِبَهُ بَالِيًا مُحَطَّمًا مُهدَّما .

كَيْفَمَا كَانَتْ تَسْمِيَةُ غِطَاءِ الرَّأْسِ فَإِنَّهُ كَانَ ، وَمَا يَـزَالُ ، تَكْيِيفاً وَزِينَـةً لِلرَّأْسِ ولاَ سِيَّمَا إِذَا كَانَتْ لَهُ دَلاَلَةٌ خَاصَّةٌ مِثْل « الشَّاشِية » التِي اخْتَصَّتْ بِهَا ، زَمنًا وَبِالَّذاتِ فِي مُجْتَمَع هَذَا الْحَكِيمِ ، فِئَةُ رِجالِ السُّلْطَةِ ، كَمَا أَنَّ كُلَّ مَنْ كَانَ وَجْهُهُ مُرَتَّبَ اللِّحْيَةِ والشَّارِبِ ، أَوْ مَنْ كَانَ حَلِيقَ الْوَجْهِ عَلَى أَحْسَنِ حَال فَإِنَّ هَذَا وذَاكَ أَمْرٌ يُخَوِّلُهُ مَظْهَرَ الْجَاه ، وَذَلِكَ بِـالإِضَافَـةِ إِلى الْمَلْبَسِ الأَنِيق ... أَمَّا مَنْ كَانَ لِبَاسُهُ رَثًّا أو مُرَقَّعًا أو مُهْملاً وَفِي حُكْمِ الْعُرْيِ فَإِنَّهُ - وَلَوْكَانَ عَالِمًا أَوْ فَقِيهًا أَوْ ابْنَ الْبُيُوتَاتِ الْفَاضِلة - يَكُونُ مَرْفُوضًا مِن الْمُجْتَمَعِ رَفْضًا تَامًّا وَلاَ يُعْتَبَرُ لَهُ وُجُود ... بَلْ ويُطْرَدُ ... مِن الْمَجَالِس ...

وهَذَا مَا يَرْمُزُ إِلَيْهِ الشَّاعِـرُ فِي رُباعيٍّ مِن رُبـاعيَّاتِـه حَيْثُ يُشِيرُ إِلَى أَنَّ « الشَّاشية » تَطْبَعُ الرَّأْسَ ، أَيْ تَـزِينُهُ وتُغْـطِيهِ شَكْـلاً وَجيهًا ، كَمَـا أَنَّ « الحسَانَه » ، أَيَ الحِلاَقَة ، تُضِيءُ الْوَجْهَ وَتفْرِغُ عَلَيْهِ شَبَابًا وَلَمَعَانا ... ومَنْ كَانَ كَامِـلَ الْكِسْوَةِ ـ الْمكسي ـ يَحْلُو جُلُوسُـهُ مَعَ النَّـاس ، أَمَّا الْمُهْمَـلُ فِي مَلْبَسِه ـ العريان ـ فَاطْرُدُوهُ مِن مَجْلِسِنَا « نَوْضُوهْ مَن حْدانَا » ، أَوْ كَمَا يَقُول :

الشَّاشِيَّـه تَـطْـبَـعْ الـرَّاسْ ** ولَوْجَـه تْـضَـوِّيـهْ لَحْـسَـانَـهْ
المكـسـي يَـقْـعَـدْ مْـع النَّـاسْ ** والْعَـرْيَـانْ نَـوْضـوهْ مَنْ حْـدَانَـا

والرُّباعيَّاتُ التِي ارْتَجَلَهـا عَبْدُ الرَّحْمَن المجـذوب وَصَاغَهَـا عَنِ الْمَالِ والْجَاهِ وَمَا لَهُمَا مِن التَّأْثِيرِ فِي الْمُجْتَمَعِ مُتَنَوِّعَةٌ ومُتَعدِّدَة .

حَوْلَ الْمَرأَة :

مَا كَانَ فِي الرِّجَالِ شَاعِرٌ أَو حَكِيمٌ ـ قَدِيمًا وحَدِيثًا ـ إِلَّا وَكَانَ لِلْمَرْأَةِ حَظٌّ مَعْلُومٌ فِي شِعْرِهِ أَو فِي أَقْوَالِه ... تِلْكَ ظَاهِرَةٌ أَزَلِيَّةٌ مَعْرُوفة . وَمِنْ خِلَالِ تَأَمُّلِ رُباعيَّاتِ هَذَا الرَّجُلِ الزَّاهِدِ يَبْدُو لَنَا أَنَّهُ كَانَ عَلَى غَيْرِ وِئَامٍ مَعَ النِّسَاء ، فَكَالَ لَهُنَّ بالمِكْيَالِ الأَوْفَى ، وَمَا كَانَ مِنْهُنَّ إِلَّا أَنْ بَادَلْنَه صَاعًا بصَاع ، إِذْ قِيلَ إِنَّه ، بِصِفَةٍ عَامَّةٍ ، كَانَ غَيْرَ مَحْبُوبٍ مِنْ غَالبِيَّتِهن ولَا سيّما فِي آخِرِ حَيَاتِه .

عَـلَى أَنَّنا ـ اعتبـارًا لِكَوْنِ حَـديثِنا هَـذَا مُوجَّهًـا إِلَى عُمُوم الْمُسْتَمِعِـينَ والمستمعات وكَذَا مِنْ قَبِيلِ الْحَيَاء ـ نَتَحاشَى الْمُقْذِعَ والفَاحِشَ مِنْ رُباعيَّاتِهِ الرائجةِ بَيْنَ النَّاسِ عَنْ نَظْرتِه إِلَى بَعْضِ نِسَاءِ مُحِيطِهِ وَعَصْره ، وإِنَّمَا نُشِيرُ فَقَطْ إِلَى بَعْضِهَا الآخر ، أَيْ إِلَى بَعْضِهَا الذِي قَدْ لَا يَتَأَذَّى أَحَدٌ ، نِسْبِيًّا ، مِنْ

سَمَاعِهِ عَبْرَ أَمْوَاجِ الأَثِيرِ .

يَرَى هَذَا الْحَكِيمُ الذِي تَأَمَّلَ حَيَاةَ النَّاسِ فِي عَـدَدٍ مِن الْبُلْدَانِ أَنّ حُبَّ النِّسَاءِ شَبِيهٌ فِي تَبَدُّلِهِ بِالْكَلْبِ الْغَدَّارِ الذِي لَا يَرْعَى الوَفَاءَ المطبوعَ عَليه عادةً كلُّ كَلْبٍ ، فَإِنَّهُ - أَيْ الْكَلْبُ الْغَدَّارُ أَوْ حُبُّ النِّسَاءِ - بَعْدَ أَنْ يُؤْلَفَ وَيُسْتَأْنَسَ بِه يَتَخَلَّى عَمَّنْ تَعَوَّدَه وَيَبْتَعِدُ عَمَّنْ أَلِفَه .

على أَنَّ الشَّطْرَ الأَوَّلَ مِن هَذَا الرُّباعِيِّ يُؤَكِّدُ أَنَّ النَّظْرَةَ المجرَّدةَ لَا تَكْفِي لإِشْبَاعِ الجَوْعان (**الشُّوفْ مَا يْبَرَّد الْجُوف**) ، بَيْنَمَا يُشِيرُ الشَّطْرُ الثانِي من ذَلك الْبَيْتِ الأَوَّلِ إِلَى أَنّ الرِّيحَ مَا كَانَ لِيَمْلَأَ نَهْرًا فَارِغًا :

الشُّــوفْ مَـا يْـبَـرَّد الجُــوفْ ** والـرِّيـحْ مــا خـمَـلْ بِـهْ وَادْ

حُــبّ النّـسَــا كَـلْب غَـدَّارْ ** بَـعـد مَـا يْـوَالَـفْ يَـبْـعَـادْ

وَإِذْ يُشِيدُ عَبْدُ الرَّحمن المجذوب بِالتَّجَوُّلِ فِي الْبُلْدَانِ عَلَى أَسَاسِ أَنَّ هَذَا التَّجَوُّلَ نُزْهَةٌ واسْتِمْتَاعٌ (**تْحَوَاس لَبْلَاد نْزَاهه**) ، وَوَسِيلَةٌ لِلتَّعَـرُّفِ عَلَى شَتَّى النَوَاحِي والأَنْهَارِ واجْتِيَازِها (**تَعْرَف شْعَاب وتْجُون**) ، يُعْلِنُ أَنَّ مَحَبَّةَ النِّسَاءِ تَدَنٍّ وَضَيَاعُ وقتٍ وَلَا طَائِلَ مِنْ وَرَائِها (**سْفَالة**) ، بَيْنَمَـا يَرَى أَنَّ مَحَبَّةَ الرِّجالِ وَصَدَاقتهم وعِشْرَتَهُم كُنوزٌ مُفِيدة :

تْـحْـوَاسْ لَبْــلاد نْـزَاهَــه ** تْـعْــرَف شْـعَـابْ وتْـجُــونْ

مْـحَـبّْـة الـنّْـسَــا سْـفَــالَــه ** ومْـحَـبّْــة الـرّجَــالْ كْـنُــوزْ

وَيَقُولُ هَذَا الشَّاعِرُ مِنْ جِهةٍ أُخْرَى : إِنَّ الْحُبَّ هُوَ نَتِيجَةُ التَّرَاضِي والتَّوَافُقِ بَيْنَ اثنين (**الْمَحِبّه بنت الرْضا**) ، وَإِنَّ مَنْ يُحِبُّ يَكُونُ بِصِفَةٍ مُسَبَّقَةٍ قَدْ قَبِلَ أَنْ تَسْتَعْبِدَهُ هَذِهِ الْمَحَبَّةُ (**اللِّي حَبْهَا مَلْكَاتو**) ؛ لكنَّ الْحُبَّ لَا يُخْطِىءُ أَحدًا ، فَكُلٌّ مُعَرَّضٌ لِسِهَامِه (**ما خْطات حتَّى واحد**) ، إِنَّما دَرَجَاتُ هَذَا الالْتِياعِ

أو ذَلك الاِسْتِعْبَادِ تَخْتَلِفُ بِاخْتلافِ الأفْرَادِ (**كُلْ واحد كِيفْ جاتو**) .
وهَذَا نَصُّ ذَلك الرُّبَاعيّ :

المْــحــبَّــه بَــنْــت الــرْضَــا ** اللِّي حَــبْــهــا مــلْــكَــاتُــو
مَــا اخْــطــاتْ حَــتَّــى وَاحَــدْ ** وُكْــلْ وَاحَــدْ كِــيــفْ جَــاتُــو

نَعَمْ إنَّ كَيْدَ النِّسَاءِ عَظِيم . وَيَرَى عَبْدُ الرَّحمن المجذوب أَنَّ هَذَا الكَيْدَ عَلَى صِنْفَيْنِ اثْنَيْن ، أي مُشَدّد ، (**كِيد النْسا كِيدَيْن**) ، وأنَّهُ هُـوَ - أي الشَّاعِر - مِنْ شِدَّةِ كَيْدِهِنَّ يَلُوذُ بِالْفِرَارِ مِنْهُنَّ (**من كِيدْهُم جِيت هارب**) لأنَّهُنَّ - في نَظَرِهِ - يَتَحَزَّمْنَ بالأفاعِي (**يَتْحَـزْموا بـالْلفَاعِي**) ، وَيَتَـزَيَّن بالعقارب في أرْجُلِهِنَّ ! وهَذِهِ قَسَاوَةٌ نَاتِجَةٌ ، بِدُونِ شَكٍّ ، عَنْ عِداءٍ مَكْشُوف .

وَلَوْ لَمْ يَكُنْ لِذَلِكَ الشَّاعِرِ سِوَى هَذَا الرُّبَاعِيّ فِي التَّهَجُّمِ عَلَى أُمَّهَـاتِنَا ، وَشَقِيقَاتِنَا ، وَحَلاَئِلنَا ، وَبَنَاتِنَا ... لَكَفَى تبريرًا لِعَدَمِ ارْتِيَاحِهِنَّ نَحْوَهُ حَيًّا وَمَيْتًا .

وهَذَا نَصُّ ذلِك الرُّباعيّ :

كِــيــد الــنْــسَــا كِــيــدَيْــن ** وُمَــنْ كِــيــدْهُــم جِــيــتْ هَــارَبْ
يَــتْــحَــزْمُــوا بــالْلفَــاعِــي ** ويَــتْــخَــلْــخْــلُــوا بِــالْــعْــقَــارَبْ

وَمَفْهُوم تَعْبِير « **يَتْخَلخلوا بِالْعْقارب** » يَعْنِي يَلْبَسْنَ العقـارب بِمَثَابَـةِ الْخَلاَخِيل فِي أَرْجُلِهن .

وَهُنَاك ، مِنْ بَيْن رُبَاعِيَّاتِهِ ، رُبَاعِيٌّ آخَرُ شَبِيهٌ بِهَذَا ، وَنَصُّه :

كِــيــد الــنْــسَــا كِــيــدَيْــن ** ومــن كِــيــدْهُــم يــا خُــزُونِــي
رَاكْــبَــه عْــلَــى ظْهَــر الــسْــبَــع ** وَتْــقُــول : الْــجــدْيَــانْ يَــاكْلُــونِــي

والجَدْيُ (جمع جِدْيان) هو وَلَدُ المَعْزِ فِي سَنَتِهِ الأُولَى حَيْثُ لاَ قُوَّةَ لَهُ ولاَ

طاقةً عَلَى الاِعْتِدَاء . ومَدْلولُ هَـذَا ، فِي رَأْيِ **عَبْد الرَّحْمَن المجـذوب** ، أَنَّ الْمَرْأَةَ ـ بِدَهَائِهَا ـ تَسْتَطِيعُ أَنْ تَمْتَـطِيَ ظَهْرَ الأَسَـدِ مُتَغَلِّبَةً عَلَيْـهِ ، وتُوهِمَ النَاسَ ، فِي نَفْسِ الْوَقْتِ ، أَنَّهَا خَائِفَةٌ مِنْ وَلَدِ الْمَعْزِ !

وَيَقُولُ أَيْضًا عَنِ النِّسَاءِ بِأَنَّ اللَّوعةَ مِنْهُنَّ لاَ تُنْسَى (**كَيَّتْهم مَا تَتنسَى**) ، والأَفْضَلُ أَلَّا تَتَنَاوَل شُرْبَتهن (**مرقتهم لا تتحسَّى**) وإِذَا أَقْسَمْنَ عَلَى النَّيْلِ مِنْكَ فَمَا عَلَيْكَ إِلَّا الفِرَار مُجَرَّدًا مِنْ كِسْوَتِك :

النْسَـا كَيَّتْـهُـم مـا تَـتـنسَى ⁂ ومَـرْقَـتْـهُـم مـا تـتْـحَـسَى
وإِذَا حَلْـفُوا فِيـك الـنْسَـا ⁂ غِيـر اهْـرُبْ بْـلاَ كْـسَـا

ويَرَى كَذَلِكَ أَنَّ الضَّحكَاتِ الْجَمِيلةَ التِي تَمْتَازُ بِهَا النِّسَاءُ لاَ تَدُوم ... وإِذَا مَا كَانَ السَّمَكُ يُجِيدُ السِّبَاحَةَ فِي الْبَحْرِ فَإِنَّهُنَّ ـ هُنَّ ـ يَسْبَحْنَ مِنْ دُونِ مَاء :

مـا ازِّيـن الـنْسَـا بْضَحْـكَـاتْ ⁂ لَوْ كَـانْ فِيـهَـا يْـدُومُـوا
الْحُـوتْ فِـي لَـبْـحَـر عَـوَّام ⁂ وْهُـمْ بْـلا مَـا يْـعُـومُـوا

وَتَرْكِيبُ : « **مَا ازِّينْ النْسَا** » مَعْنَاهُ : « **مَا أَجْمَل النِّساء** » . وَمَفْهُومُ هَذَا الرُّبَاعِيّ ، بِصِفَةٍ عَامَّةٍ ، أَنَّ قُوَّتَهُنَّ دُونَهَا أَيَّةُ قُوَّةٍ كَيْفَمَا كَانَتْ ، إِنَّهُنَّ قَادِرَاتٌ عَلَى كُلِّ شيءٍ مَهْمَا عَظُمَ شَأْنُه !

وعَبْدُ الرَّحْمن المجذوب مُتَيَقِّنٌ مِنْ أَنَّ النِّسَاءَ والمالَ سَبَبُ كُلِّ خِصَامٍ أَو شَنَآنٍ بَيْنَ الأَحِبَّةِ والأَقَارِب . ويَقولُ فِي هَذَا الصدد :

يـا اللِّي تْـعَـيَّـطْ قُـدَّام البـاب ⁂ عَـيَّـطْ وكُـنْ فَـاهَـم
مَـا يَـفْـسَـدْ بَـيْـنَ الاَحْـبَـابْ ⁂ غـيـر الـنْسَـا والدْرَاهَـم

وَحَدِيثُ النِّسَاءِ مُؤْنِسٌ وَمُمْتِعٌ ويُفَتِّحُ الْفَهْم . لَكِنَّ النِّسَاءَ قَادِرَاتٌ عَلَى أَنْ يَصْنَعْنَ قِلادةً مِن الْهَوَاء (**يْدِيرُوا شَرْكَةْ مْنَ الرِّيح**) ، وَعَلَى أَنْ يحلِقْنَ لَكَ

شَعَرَ رَأْسِكَ دُونَ حَاجةٍ إِلَى تَبْلِيلِهِ بِالْمَاء (يْحَسْنُوا لَكْ بْلاَ ما) ، اَيْ أَنْ يَلْعَبْنَ عَلَيْكَ بِدَهاء ... وَهَذَا مَا يَقولُه عَبْدُ الرَّحمن المجذوب :

خْـدِيـتْ الـنْـسَـا يـونْــسْ * وَيْــعَــلْــمْ لَـفْـهَــامَــه**
يْـدِيــروا شَـرْكــه مــن الرِّيــح * وَيْـحَـسْـنُــوا لَكْ بْــلاَ مَــا**

وَفِي نَفْسِ الْمَعْنَى عَلَى وجْهِ التقريبِ يُبْدِعُ هَذَا الشَّاعِرُ رُباعيًّا آخَرَ يُؤَكِّدُ فِيهِ أَنَّ سُوقَ النِّسَاءِ سَيِّءُ الْفَال (مَطْيَار) ، فانْتَبِهْ جَيِّدًا أَنْتَ أَيُّهَا الدَّاخِلُ إِلَيْهِ ، وَبِعِبَارةٍ أُخْرَى فَإِنَّه يَقُول : أَيُّها الْعَازِمُ عَلَى التَّعامُلِ مَعَ النِّسَاءِ إِيَّاكَ ثُمَّ إِيَّاكَ مِنْ عَاقِبَةِ هَذَا التعامُل . إِنَّهُنَّ يُوهِمْنَك بِأَنَّ هُنَاكَ رِبْحًا هَائِلاً (**ايْوَرّيوْا لك من الربح قنطار**) ، فِي حِينِ انَّهُنَّ يَدْفَعْنَ بِكَ إِلَى خَسَارةِ رَأْسِ الْمَال :

سُوق الـنْـسَـا سُـوقْ مَـطْـيَـار * يَــا دَاخْــلُــو رُدْ بَــالَــكْ**
ايْــوَرِّيــوْا لك من الربــح قنـطار * وَيْــخَــسْــرُوكْ فِي راسْ مَــالَكْ**

وَهُوَ يُوصِي بِعَدَمِ الانْخِدَاعِ والانْبِهَـارِ بِمَظْهَـرِ الْمَرْأَةِ مِنْ حَيْثُ الجَمَـال (**الزِّين**) ، لِأَنَّ الجَمَالَ فِي نَظَرِهِ مِثْـل زَهْرِ شَجَـرَةِ الدِّفْلَى الذِي يُشْبِـهُ فِي احْمِرارِهِ الْوَرْدَ وَمَا هو بِوَرْدٍ (**كَنُوَّار الدّفلَى**) . فَشَتَّانَ بَيْنَ الاثْنَـيْن ! إِنَّ عُرُوقَ الدِّفْلَى يُضْرَبُ بِهَا الْمَثَلُ فِي الْمَرَارَة :

يَــا اللِّي تَـعْـشَـق الـنْـسَـا * لاَ يَـغْـوِيـكْ الـزِّيــن**
الـزِّيــن كَـنُــوَّار الدّفـلَـى * فِـي الْـفُـم عْـرُوقْــو مْـرِّيــن**

وارْتِكَازًا عَلَى نَفْسِ الْمُقَارَنَةِ والتَّشْبِيهِ بِزَهْرِ شَجَرَةِ الدِّفْلَى التِي تَنْبُتُ عَلَى حَوَاشِي الْودْيَانِ حَيْثُ تَغْمُرُ الْمَكَانَ بِظِلاَلِهَا ، يُشِيرُ أَيْضًا إِلَى أَنَّ جَمَالَ الْغَادَةِ (**زين الطَّفله**) لا يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ مُثِيرًا لِلْإِعْجَابِ إِلاَّ إِذَا اقْتَرَنَ فِعْلاً بِجَمَالِ الأَفْعَال :

لَا يَـعْـجْـبَـكْ نُـوَّار الدِّفْـلَى ** فِـي الـوَادْ عَـامَـلْ ظْـلَايـلْ
لَا يْـعَـجْـبَـكْ زِيـن الطَّفْـلَـه ** حَـتَّـى تْـشُـوف لَـفْـعَـايَـلْ

وَيَرَى **عَبْدُ الرَّحمن المجذوب** أنّ حُبَّ النِّسَاءِ ذُو رَائحةٍ فَوَّاحَةٍ مِثْل رَائِحَةِ الْمِسْكِ أو التُّفَّاح ، وَهُوَ كَأَنَّهُ بَاقةٌ (بَاقَةُ فُلٍّ مَثَلاً) بَيْنَ الطَّاقِيةِ وشَعَرِ الرَّأْسِ كَمَا عَلَيْهِ عَادةُ بَعْضِ النَّاسِ فِي **تونس** (**مَشْمُوم بَيْنَ الطْواقِي**) ... فَمَن أَحبَّتْهُ النِّسَاءُ مَاتَ مُسْتَرِيحًا ، وَمَنْ كَرِهْنَهُ مَاتَ شقيًّا :

حُـبْ الـنْـسَـا مَـسْـك تَـفَّـاحْ ** مَـشْـمُـوم بَـيْـنَ الطْـوَاقِـي
اللِّي حَـبُّـوهْ يـمُـوتْ مَـرْتَـاحْ ** واللِّي كَـرْهُـوهْ يـمُـوتْ شَـاقِـي

وهو يُوصِي مَنْ قَدْ يَكُونُ مُحِبًّا لاثنتَيْن فِي آنٍ وَاحِدٍ ـ بِحَيْثُ يَكُونُ وَكَأَنَّهُ فَوْقَ شَجَرةٍ يَرْكَبُ عَلَى عَرْشَيْن ـ أَنْ يَنْتَبِهَ جِدًّا وبرِفْقٍ حَتَّى لاَ يَسْقُطَ إِلَى الأَرْضِ (**سَايَسْ لا تْطِيح**) ، كَمَا يُوصِيهِ بِأَنْ يَتَخَلَّى عن مَحَبَّةِ اثْنَتَيْنِ معًا . فَإِنَّهُ إِذَا أَخَذَ وَاحِدَةً مِنْهُمَا فَقَط يُرِيحُ وَيَسْتَرِيحُ :

يـا رَاكَـبْ عَـرْشَـيْـن ** سَـايَـسْ لَا تْـطِـيـحْ
خَـلِّـيـكْ مـن مْـحَـبَّـةْ اثْـنَـيْنْ ** خُـذْ وَحْـدَه تـسـتـرِيـحْ

وَكَمْ رَدَّدَ الغِناءُ والطَّرَبُ فِي السَّهَراتِ والجَلَسَاتِ الْخَاصَّةِ التَّرَنُّمَ والتَّنْغِيمَ مَوَّالاً بِرُبَاعيٍّ مَشْهُورٍ لِهَذَا الشَّاعِرِ ، فَطَالَمَا طَرِبَ الناسُ لِسَمَاعِه وَتَمَـايَلُوا انتشاءً وحُبُورًا ، وهو :

لَا فِي الجـبَـالْ وَادْ مَـغْـلُـومْ ** وْلَا فـي الشْـتَـا لِـيـلْ دَافِي
لَا فِي لَغْـدَا قَـلْـب مَـرْحُـوم ** ولا فـي الـنْـسَـا عـهـد وافي

وَعَلَى هَذَا النَّسَقِ ـ وَسِوَاهُ ـ مِن الْكَلاَمِ الْمَوْزُونِ حَوْلَ النِّسَاءِ يَسْتَرْسِلُ

عَبْدُ الرَّحْمَنِ المجذوب ... وَلَهُ نظَرِيَّاتٌ مُتعدِّدةٌ أُخْرَى بِهَذَا الخصوص ولا سيَّما عَنِ الأرَامِلِ والْمُطَلَّقَاتِ وَأَوْلَادِهِنَّ .

وإِذَا كَانَ حَاكِي الْكُفْرِ لَيْسَ بِكَافِرٍ ، فَإِنَّ رَاوِيَ هَـذِهِ الرُّباعيَّات ليس بالضرورةِ مُشَاطِرًا لِآراءِ صَاحِبِهَا ، وَإِنَّما هِيَ نَمَاذِجُ مِن الأدب الشَّعْبِيِّ فِي مُحِيطٍ عربيّ .

نَصَائِـحُ وَمَواعِـظ :

عَلَى أَنَّ النِّسَاءَ والرِّجَالَ ـ جَمِيعَهم ـ قد أَحَبُّوا جانِبَ الحِكَمِ والْمَوَاعِظِ في رُبَاعِيَّاتِ الشَّاعِرِ الْحَكِيمِ عَبْدِ الرَّحمن المجذوب ، وطالما رَدَّدُوهَا وَتَمَثَّلُوا بها . وإِذَا كَانَتِ الإِشَارَةُ قَدْ سَلَفتْ إِلَى بَعْضِهَا فَإِنَّنَا نُضِيفُ إِلَيْهَا أُخْرَى .

فَلَطَالَمَا نَصَحَ سَامِعِيهِ بالتَّدْقِيقِ والتَّرَوِّي في انتقاء الصَّدِيقِ الْحَقِّ مِنْ بيْنِ كَثْرَةِ مَنْ قَد يُظَنُّ أَنَّهم أَصْدِقاء . وَهُـوَ يُنَادِي الْمُسْتَمِـع إلى خِطَابِـهِ بِـ «المغرور في الدنيا» اعْتِبَارًا لِكَوْنِ أَيِّ إِنْسَانٍ حَيٍّ إِنَّمَا هُوَ في دَارِ الْغُرُور ، فَيَقُولُ مَا مَعْنَاهُ : أَيُّهَا الإِنْسَانُ الْمَغْرُورُ في هَذِهِ الدُّنْيَا ، يَا مَنْ كَثُرَ أَصْحَابُهُ وَمَنْ يَعْتَقِدُ أَنَّهُم أَحْبَابُه ، لَا تَتَّخِذْ مِنْ بَيْنِهم صَدِيقًا لَكَ إِلَّا بَعْدَ أن تَرَى مِنْهُ حُسْنَ الْمُعَامَلَةِ (الصْوَاب) وتَتَأَكَّدَ مِنْ سِيرَتِه الْمُسْتَقِيمَة :

يَـا الْـمَـغْـرُور فِي الـدُّنْـيَـا ** يَـا كْـثِـيـر لَـحْـبَـابْ
مَـا تْـدِيـر الصَّـاحَـب حَـتَّـى ** تْـشُـوف الـصْـوَابْ

وَإِذْ يَتَأَمَّلُ عَبْدُ الرَّحمن المجذوب نَامُوسَ الْحَيَاةِ تَأَمُّلًا دَقِيقًا يَـرَى أَنَّ لِلْمُعَاشَرةِ في الْمُجْتَمَعِ أَهَمِّيَّةً كَبِيرَة . فَالْمُخَالَطَةُ بَيْنَ النَّاس بِقَدْرِ مَا تُؤَدِّي إِلَى الخَيْرِ حِينًا قد تُؤَدِّي إِلَى الشَّرِّ أَحْيَانًا . فَمَنْ عَاشَرَ الْكُرَمَـاءَ وَذَوِي الْمَحَامِـدِ (لَجْوَاد) ، وَخَالَطَهُمْ مُخَالَطَةً اجْتِمَاعِيَّةً يَكْتَسِبُ ـ حَتْمًا ـ جَمِيل صِفَاتِهِمْ

فِي الْجُـودِ والْكَرَم . أَمَّـا بِعَكْسِ ذَلِكَ فَإِنَّ مَنِ اخْتَلَطَ بِـالأَرْذَالِ وَالأَوْبَاشِ والأَشْرَارِ فَلاَ يُمْكِنُ إِلاَّ أَن يُصْبِحَ مُعْدِمًا مِن كُلِّ ثَـرْوَةٍ كيفما كـانت (زال غناه) ؛ كَمَا أَنَّ مَنْ جَاوَرَ قدْرًا مُحَمَّمَةً ، أَي مُلَطَّخةً بالسَّوادِ النَّاتِجِ عَنْ نَارِ الفَحْمِ ، فَإِنَّهُ لاَ بُدَّ مِنْ أَنْ يُلَطَّخ هو أيضًا بذلك الحَمَم . أَمَّا مَن جَاوَرَ نظَافَةَ الصَّابُونِ فَلاَ بُدَّ مِنْ أَنْ يَنَالَ نَقَاوَتَه :

مَنْ خَـالَط لَجْـوَادْ جَـادْ بْجُـودْهُم ** ومـنْ خَـالَطْ لَرْذَالْ زَالْ غْـنَـاهْ
وْمَنْ جَـاوَرْ قَدْره اَنـطْلَى بِخمُومْهَـا ** ومَنْ جَـاوَرْ صَـابُـونْ جَـابْ نْقَـاهْ

وَكَلِمَةُ « جَابْ » تَعْنِي جَلَبَ أَو حَصَلَ عَلَى ، أو أَحْضَر ... وَمَفْهُومُ « جَاب نْقاه » حَصَلَ عَلَى نَقَاوَتِهِ وَنَظَافَتِهِ .

وَفِي هَذَا السِّيَاقِ أَيْضًـا وَعَلَى سَبِيـلِ النَّصِيحة ، يُـوصِي عَبْدُ الرَّحمن المجذوب الْمُسْتَمِعَ إِلَيْهِ بِأَلاَّ يَرْتَدِيَ إِلاَّ مَا هُوَ عَلَى قَدِّهِ وَمَقَاسِه ، وَأَلاَّ يَلْعَبَ إِلاَّ مَعَ قَرِينِه ونِدِّه ، وَأَلاَّ يَتَنَاوَلَ مِن المَأْكُولاَتِ والْمَشْرُوبَـاتِ إِلاَّ مَا يَـرُوقُ لَهُ ويَتَذَوَّقُهُ ، وأَلاَّ يَكُونَ لَهُ مُصَاحِبًا وَرَفِيقًا إِلاَّ الشَّخْصُ الذِي يَعْرِفُ مَنْزِلَتَهُ حَقَّ المعْرِفَة :

اَلْبَسْ قَـدَّكْ والْعَـبْ مْـعَ نَـدَّك ** واشْـرَبْ وكُـلْ مَـا يْـرُوقَـكْ
وْلاَ تْـخَـالَطْ غـير اللِّي يَـعْـرَف ** قِـيمَـةْ بَـابَـاكْ وْجَـدَّكْ

وَمِنْ أَشْهَرِ نَصَائِحِ هَذَا الشَّاعِرِ الشَّعْبِيّ ورُباعِيَّاتِه ذَلِك الرُّبَاعِيُّ الذِي يَقُولُ فِيهِ مَا مُؤَدَّاه : عَلَيْكَ بِطَاعَةِ مَنْ تَخْدِمُه ... مُقَابِلَ مَا تَنَالُهُ مِنْ أَجْر ... وخَيْرٌلَكَ أن تَبِيعَ مَا قد تُرِيدُ رَهْنَه ... حَتَّى لاَ يَكُونَ فَضْلُ أَحَدٍ عَلَيْك ... مَا دَامَ بِيَدِكَ مَتاع ... وَعَلَيْكَ بِالْمُحَافَظَةِ التَّامَّةِ عَلَى مَا تَسْعَى إِلَى خَزْنِه ، وَإِيَّاكَ ثُمَّ إِيَّاكَ أَنْ تُذِيعَ أَسْرَارَك :

اللّـيَ تْـخَــدْمُــو طِـيـعُــو ⁂ واللّـي تْـرَهْـنُـو بِـيـعُــو
واللّي تْـخَـزْنُــو مـا تْـضَـيْـعُـو ⁂ والسَّرْ ديـالك مـا تْـشَـيْـعُـو

وَحَرْفُ الْوَاوِ فِي آخِرِ أَفْعَالِ هَذَا الرُّبَاعِيّ يَقُومُ مَقَامَ حَرْفِ الْهَاءِ ، الضمير الْمُتَّصِـلِ الذِي يَكُونُ بِمَثَـابَةِ الْمَفْعُـولِ بِهِ : « **تَخْـدْمُـو** » أَيْ تَخْـدِمُـه ، و« **طِيعُو** » أَيْ أَطِعْهُ ، و« **تْـرَهْنُو** » أَيْ تَـرْهَنُه ، و« **بِيعُـو** » أَيْ بِعْهُ ، و« **تْخَزنو** » أَيْ تَخْزُنُه ، و« **ماتْضَيْعُو** » أي لا تُضِعْهُ ، و« **ما تْشَيْعُو** » بِمَعْنَى لاَ تُذِعْهُ بَيْنَ النَّاس . أَمَّا كَلِمَةُ « **دْيَالَك** » فَإِنَّها ـ كَمَا قدْ يَكُونُ مَعْلُومًا لِجمهورِ الْمُسْتَمِعِينَ وَالْمُسْتَمِعَاتِ خَارِجَ الْمُحِيطِ المغربي ـ تُفِيدُ مَفْهُومَ النِّسْبَةِ أو الانتساب ، تمَامًا كَمَا تُفِيدُه كَلِمَةُ « **تَـابَعَك** » أو كَلِمَـةُ « **متاعـك** » أو « **بتاعك** » أو « **حَقَّك** »في لَهَجَاتٍ عَرَبِيَّةٍ أُخْرى .

وَيُوصِي **عَبْدُ الرَّحمن المجذوب** في رُبَاعِيٍّ من رُباعيَّاتِهِ بِعَدَمِ التَّمَـاطُلِ وَالتَّبَاطُوءِ والتردُّدِ فِي أَخْذِ الْقَرَار ، إذ النَّجَاحُ يَكْمُنُ فِي الْمُبَادَرَةِ العاجلةِ بِحَسْمِ أَيِّ مَوْضُوعٍ ... وَهُوَ كَيْفَمَا كَانَ الْحَالُ يَتَحَدَّثُ رَمْزًا إِذْ يقول : « **حَطِيتْهَا تَبْـرَد** » ، وَكَأَنَّـهُ يَعْنِي بالضَّمِـيرِ الْمُتَضَمَّنِ فِي « **ها** » مَـا عَسَاه أَنْ يَكُـونَ « **أُكْلَة** » . و« **حَـطِّيتْهَا** » مَعْنَـاهَا أَنْـزَلْتُهَا فَـوْقَ الأَرْضِ أَو وَضَعْتُهَـا أَو تَرَكْتُهَا . إِنَّ أُكْلَتَهُ هَذِهِ سُخْنَةٌ جِدًّا ، وَلِذَلِكَ فَإِنَّهُ قَدْ وَضَعَهَا لِتَبْرد . لكنَّ هُنَّاكَ مَنْ رَأَى هَذِهِ الْغَنِيمةَ مَتْـرُوكَةً مُهْمَلَةً فَـارْتَمَى عَلَيْهَا حَـالاً ـ **لْقَفْهَا** ـ وَهِيَ سُخْنَة ـ **سْخُونَهْ** ـ ... ثُمَّ يَضْرِبُ الْمَثَلَ بِفِعْلِهِ هَذَا فَيَقُولُ إِنَّ هَذِهِ حَالَةُ من يَسْلُكُ سُلُوكَ التَّرَدُّد ، وبالتالي فإِنَّ هَذَا عِلاَجُ لِمَن « **يُبرِّد** » ، أَي لِمَنْ يَتَثَاقَلُ فِي أَخْذِ الْقَرَار ، لِأَنَّ أَفْضَلَ الطَّعَامِ هُوَمَا يُؤْكَلُ سُخْنًا ، أَيْ إِنَّ أَفْضَلَ قَرارٍ هُوَمَا يُؤْخَذُ عَزْمًا :

حَـطْـيـتْـهَـا تَـبْـرَدْ ** جَـا اللِّي لَقَـفْـهَـا سْـخُـونَـه
هَـذَا ذوَا لِمَـنْ يَـبَـرَّدْ ** خِـيـرْ الْمُـواكَـلْ سْـخُـونَـه

وَهُنَاكَ عَشَرَاتٌ أُخْرَى مِن الرُّباعِيَّاتِ الشَّعْبِيَّةِ التِي صَاغَهَا هَذَا الشَّاعِرُ الْحَكِيمُ فِي التَّوْجِيهاتِ والنَّصَائحِ اعْتِمَادًا ، مِنْ جِهَةٍ ، عَلَى تَجارِبِهِ وَمُلَاحَظَاتِهِ فِي مُجْتَمَعِ عَصْرِه ، وارْتِكَازًا ، مِنْ جِهَةٍ أُخْرَى ، عَلَى مَواهِبِهِ وَفراسَتِهِ وَمَا طُبِعَ عَلَيْهِ مِنْ فَاحِصِ التَّفكِيرِ ونَقِيِّ التَّدبُّر .

تَأمُّلاتٌ مُتَنَوِّعة :

إنَّ الغَالبيَّةَ مِن النِّقاطِ التِي وَضَعنَا لِبَعْضِهَـا عُنْوَانًـا فِي مُسَلْسَلِ هَـذَا الْبَرْنَامَجِ الإذَاعِيِّ يُمْكِنُ اعْتِبارُها ، إذَا مَا ادْمَجْنَا بَعْضَها فِي بَعْضِهَا الآخر ، تأَمُّلاتِ حَكِيمٍ وَاعٍ مُتَدَبِّر ، مع الْعِلْمِ بِأَنَّنَا لا نَسْتَهْدِفُ ، أبَدًا ، إثباتَ دِيوانٍ بِحَـذَافِيرِهِ أو مَجْمـوعٍ بِكَامِلِه ، وَإنَّمـا هِيَ أَمْثِلَةٌ مِن هَذَا الأدَب الشَّعْبِيِّ الرَّصِين .

لَطَالَمَا أشَادَ **عَبْـدُ الرَّحمن المجذوب** بِمُـزَاوَلَةِ الْعَمَلِ الْجَـادِّ ، الْعَمَلِ « الْيَدَوِيّ » ، مِنْ زِراعة ، وَفِلاحة ، وَصِنَاعة ، وَحِرْفة ... بَدَلاً من الاتِّكالِ عَلَى مَوَارِدِ مَالِ الآباءِ ولأجْدَاد . إنَّ هَذَا الْحَكِيمَ بِقَدْرِ مَا يَدْعُو إِلَى التَّمَسُّكِ بِالدِّين يَدْعُو إلَى التَّمَسُّكِ بِالْعَمَلِ (**الخدمة والدّين**) ، وَيُشَبِّهُهُمَا بِالْوَرْدِ الْمُتَفَتِّحِ عَلَى الْخَدَّيْنِ فِي الْوَجْهِ الْبَشَرِيِّ أَحْمَرَ جَمِيلاً إنْ لَمْ يَكُنْ عَطِرًا فَوَّاحًا . إنَّ مَالَ الأجْدَادِ ، مَوْرُوثًا كَانَ أمْ مَوْهُوبًا ، مَالٌ سَرِيعُ الْفَنَاءِ والزَّوَال (**يَفْنَى مالْ الجَدِّين**) ، بَيْنَمَا الصَّنْعَةُ التِي يُجِيدُها الْمَرْءُ ويُتقِنُهَا تَبْقَى لَهُ ذُخْرًا أَبَدِيًّا ولَا يَفْنَى لَهَا رَيْعٌ أَوْ مَردودٌ أَبَدًا :

الْخَـــدْمَـــه والـدِّيــــن *** كـالْـوَرْدِ عْـلَـى الخَـدِّيـنْ
يَـفْـنَـــى مَـــال الْجَـدِّيـــنْ *** وَتَـبْـقَـى صَـنْـعَـةْ الْيَـدِّيـنْ

وَإِذَا كَانَ أَهْلُ كُلِّ زَمَانٍ يَتَأَسَّفُونَ وَيَتَحَسَّرُونَ فِعْلاً عَلَى أَهْل الزَّمَنِ الذِي سَبَقَهُم وَلَا سيّما عَلَى أَيَّامِ التقوَى والرَّخَاءِ والْكَرَم ، فإِنَّ هَذَا الشاعِرَ الشَّعْبِيَّ لَيْسَ بِدْعًا فِي هَذَا الصَّدد . لَكِنَّهُ يَتَذكرهُم فِي تَأَمُّلاتِهِ مِنْ حَيْثُ الْجَهْـرُ أَمْرًا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهْيًا عَنِ الْمُنْكَر ، وَيَقُولُ فِي تَعْبِيرِهِ الشَّعْبِيِّ : « **جَا هَاذ الزْمَـان بْفاسُه** » . وَكَلِمَةُ « **فأْس** » هَذِهِ هِي تِلْكَ الأَداةُ التِي بها يُقْـطَعُ الْخَشَبُ ، وَتُحْفَرُ الأَرْضُ ، وَبِهَا أَيْضًا يُمْكِنُ زَجْرُ كلِّ مَن قد تُسَوِّلُ له نفسُه قَوْلَ ما لا يُقْبَلُ مَقَالُه[1] ، إِذْ يَرَى هَذَا الشَّاعِرُ أَنَّ كُل مَن قَدْ يَتَكَلَّمُ فِي زَمَانِهِ وَعَصْـرِهِ بِالْحَقِّ تُخَضَّد شَوْكَتُه ... وَرُبَّمَا يُكَسَّرُ رَأْسُهُ ... بِذَلِكَ الْفَأْس :

رَاحْ ذَاك الـزْمَـانْ ونَـاسُـهْ *** وَجَـا هَـاذ الـزْمَـان بْـفَـاسُـهْ
وكُـلْ مَـنْ يَـتْـكَـلَّـمْ بِـالْحَـقْ *** كـسّـــروا لُـــهْ راسُـــهْ

وهَاءُ الضَّمِيرِ الْمُتَّصِلِ الْمَرْبُوطَةُ فِي آخِرِ كَلِمَاتِ « **نَاسُهْ** » ، و« **بْفَاسُهْ** » ، و« **رَاسُه** » يَحُلُّ مَحَلَّها وَاوٌ مِنْ حَيْثُ النُّطْقُ الدَّارِج ، فَتُنْطَقُ بِطَبِيعَتِها هكذا : « **نَاسُو** » ، و« **بْفَاسُو** » ، و« **راسُو** » .

وَهُنَاكَ رُبَاعِيٌّ آخَرُ لِهَذَا الْحَكِيمِ قَد ذَهَبَ هو أيْضًا مَذْهَبَ الأَمْثَـالِ بَيْنَ النَّاس ... عَنِ ابْنِ آدَم ، عَنِ الْبَشَر ... الْمَطْبُوعِ عَلَى الْخُبْثِ وسُوءِ الطَّبْعِ (**خَايَبْ الطّبيعه**) ، والْمَطْبُوعِ بِالتَّالِي عَلَى النِّفَاقِ والخِدَاعِ . إِنَّ ابْنَ آدمَ عِنْدَمَا يَبْتَسِمُ لَكَ ويفرج أَسْنَانَهُ فِي مُقَابِلِ انْفِرَاجِ أَسْنَانِكَ فَلَا تُصَدِّقْهُ ... إِنَّ قَلْبَهُ رَغْمَ هَذِهِ الضَّحْكَةِ الصَّفْرَاءِ يُضْمِرُ لَكَ الْمَكْرَ وَالْخَدِيعَة :

---

(1) وكلمة « فاس » تعني كذلك اسم مدينة حضاريّة كبيرة في المغرب .

يَـا سَـاءَلْنِـي عْـلَى ابْـنِ ادَم ** ذَاكْ خَـايَـبْ الطّْـبِـيـعَـه
السَّـنْ يَـضْـحَـك لَلسَّـنْ ** والْقَـلـب فِـيـهْ لَخْـدِيـعَـه

وَيُشِيدُ هَذَا الشَّاعِرُ الشعبيُّ بالصِّحَّةِ الْجَيِّدَة - ربَّما في عُمرِهِ الْمُتَقَدِّم - وَيَرَى أَنَّ الصِّحَّةَ السَّلِيمَةَ هِيَ رَأْسُ الْمَال ، وهِيَ الثَّرْوَة ؛ وإِذَا انْهَارَتْ لِلْمَرءِ صِحَّتُهُ يَنْهَارُ مَعَهَا الأَصْدِقَاءُ ولأَصْحَاب : إِنَّهُمْ يَذْهَبُونَ عَنْ سَاحَتِهِ بِذَهَابِ صِحَّتِه !

صَـحْـتِـي يَـا صَـحْـتِـي ** صَـحْـتِـي يَـا رَاسْ مَـالِي
وَإِذَا مْـشَـتْ لِي صَـحْـتِـي ** اَشْ مَـنْ حْـبِـيـبْ بْـقَـى لِي

وَيَتَأَمَّلُ **عَبْدُ الرَّحمن المجذوب** في الدُّنْيَا وَوَاقِعِهَا تأمُّلَ الْمُفَكِّر المتدبِّر ، وَيُحَاوِلُ أَنْ يَنْقُلَ الصُّورةَ التِي كوَّنها عَنْهَا إِلَى مُسْتَمِعِيهِ وهُمْ مِن عَامَّةِ النَّاسِ الذِين لاَ بُدَّ مِنْ تَقْرِيبِ ذَلِكَ التَّصَوُّرِ إِلَى مُتَواضِعِ إِدْراكِهِمْ ، فَيَقُولُ إِنَّهُ مَثَّلَ الدُّنْيَـا بِبَطِّيخَـةٍ حَمْرَاءَ - « **دَلاَّعـة** » - وإِنَّ هَذِهِ « **الدَّلاَّعـة** » تَتَـدَحْـرَجُ - **تَتْكَرْكَب** - مِنْ بَيْنِ مَجموعِ الْبَطِّيخ - **الدَّلاَّع** - ، وَيَا ما أَكْثرَ عَدَد الطَّامِعينَ فِي مَبَاهِجِهَا الذِينَ الْتَصَقُوا بِهَا الْتِصَاقًا ، فَتَدَحْرَجَتْ بِهِمْ جَمِيعًا إِلَى الْهَاوِية ، إِلَى بِئْرٍ لَيْسَ لَهَا قَرار :

الـدّنْـيَـا مَـثّْـلـتـهـا دَلاَّعَــه ** تَـتْـكَـرْكَـبْ مِـن بَـيْـنَ الدَّلاَّعْ
كَـمْ لَحْـقُـوهـا مَـن طمَّـاعَـه ** وَرْمَـتْـهُـم فِي بِـيرِ مَـالُو قَـاعْ

وَيقُولُ ، بِكُلِّ بَسَاطَةٍ ، إِنَّهُ قَدْ تَأَمَّلَ الدُّنْيَا ، مَيَّزَها ، فَأَلْفَاهَا مُجَرَّدَ غُرور ، وَأَنَّها قد تَضْحَكُ لِلإِنسان سَاعةً ، لَكِنَّها سَرْعَانَ مَا تَنْقَلِبُ مِن الضَّحِكِ إِلَى العُبُوس (تْدُور) بِحَيْثُ إِنَّ تَفْكِيرَهُ هَذَا قَدْ هَدَاهُ إِلَى حَقِيقَةِ نِفَاقِها :

مَـيِّــزت الـدّنْـيَــا ** جُــبَـرْتــهَــا غُــرُورْ
تَـضْـحَـك لِلْعَـبـد سَـاعَـه ** وَمَــن بَـعـد تْـدُور

وكلمة « جْبَرتها » بمعنى وَجَدْتُها أو أَلْفَيْتُها ...

وَيَتَأمَّلُ هَذَا الحكيمُ الشعبيّ الْمُحَنَّكُ في تَقَلُّبَاتِ الدَّهْرِ وَخِدَاعِ الدُّنيا التِي لَا تَدُومُ عَلَى حَالٍ ولَا يَسْتَقِرُّ لَهَا قَرار ، ولا تُبْقِي عَلَى صَاحِبِ جَـاهٍ أو نُفُوذ . فالزَّمَنُ ـ في رَأْيه ـ لَئِيمٌ غَدَّار ... إِنَّهُ قَدْ كَسَرَ لَهُ ذِرَاعَه ، أَيْ نَزَعَ عَنْهُ كُلَّ قُوَّةٍ ، كَمَا أَنَّهُ ـ أي الزَّمن ـ كثيرًا مَا أَطَاحَ بِالْعُظَماءِ مِن سَمَاءِ مَجْدِهِم وَرَفَعَ إلى سِنَامِ السُّؤْدَدِ مَنْ كَانُوا مُجَرَّدَ رُعَاةٍ لِلْمَاشية :

يَـاذا الزْمَـان يَـا الْغَـدَّارْ ** يَـا المَـكَـسَّـرْنِـي مـن ذْرَاعِـي
طَيَّـحْـت مَـنْ كَـان سُـلْطَانْ ** وَرْفَـعْـتْ مَـن كَـانْ رَاعِـي

وَمِنْ غَيْرِ مُحَاولةِ التَّغَلْغُلِ في مَعْرِفَةِ أَصْلِ كَلِمَةِ «عَنْقُر» بِالْقَافِ الْمَعْقُوفةِ التِي تُنْطَقُ مِثْل الْجِيمِ فِي اللَّهْجَةِ الْمَصْرِيَّة ، وَيُصَاغُ مِنْهَا اسْمُ الْمَفْعُولِ واسْمُ الفاعِلِ صِفَةً أو حَالًا ... قَدْ تَجْدُرُ الإِشَارَةُ إِلَى أَنَّ هَذِهِ الْكَلِمَةَ غَالبًا مَا تُسْتَعْمَلُ في الدَّارِجَةِ الْمَغْرِبِيّة مَقْرُونَةً بِغِطَاءِ الرَّأْسِ كالشَّاشِيـة ، أَو الطَّرْبُوش ، أو الطَّاقِيَة ... مَثَلًا ، فَيُقَالُ : فُلَان « مْعَنْقَر طَرْبُوشُه » ، أَو « يَمْشِي مْعَنْقَر الشَّاشِيَة » أو « طَاقيته مْعَنقره » ... مَـدْلُولُ كُلِّ هَـذَا نَوْعٌ من التِّيـهِ ، والتَّبَـخْتُرِ ، والتَّدَلُّلِ ، والزَّهْوِ ، والخُيَلَاءِ ، والتَّكَبُّر ... وقَدِ اسْتَعْمَـلَ **عَبْدُ الرَّحْمَن المجذوب** تِلْكَ الْكَلِمَةَ مَقْرُونَةً بِكَلِمة « **الشْوَاشِي** » ، جَمْع لِمُفْرَدِ كَلِمَةِ شَاشِيَة ، فِي رُبَاعِيٍّ عَنْ الْمَالِ وَمَنْزِلَةِ الْفَقِيرِ قليل الْمَالِ أو الذِي لَا مَالَ لَهُ ، مَنْزِلَةِ الإِنْسَانِ الْمُحْتَقَرِ دَائِمًا ، (مَحْقور) ، وَلَا يُسَاوِي شَيْئًا فِي الدُّنْيَا . أَمَّا الاغنياءُ أَصْحَابُ المالِ فَإِنَّ الدُّنْيَا تَزْهُو لَهُمْ وَتَبْتَسِم ، وَهُمْ لِذَلِكَ يَتَبَخْتَرُونَ

تِيهًا وعُجْبًا في الطُّرُقَاتِ رَافِعِينَ رُؤُوسَهم إلَى عَنان السَّمَاء ، والشاشياتُ التِي عَلَى رُؤُوسِهم « مْعَنقْرة» ، مَائِلَة تَارةً إلَى الأمَـامِ أو إلَى الْيَمِين وَتَـارَةً إلَى الْوَرَاءِ أَوْ إلى الشّمال ، مُخَالِفِينَ كُلَّ أُصُولِ الْحِشْمَةِ والْحَيَاء ، وَكُلَّ أُصُولِ اللّبَاسِ والأناقة ، ومُخَالَفَاتُهم لِهَذِهِ الأُصُولِ أوتِلْك لا تُحْسَبُ عَلَيْهِم ، وَإِنّما هِي زِينةٌ لَهُم مَا دَامَ المالُ سَتَّارَ الْعُيُوب :

قْـلِيـل الْمَـالْ دَايْـمـا مَـحْـقُـوزْ ** فِي دْنِـيْـتُـو مَـا يَـسْـوَاشِي
تَـزْهـو الدُّنْيَـا لاصْحَـابْ الْمَـالْ ** اللِّي يَتْمَشَّـاوْا وْيعَنْقْرُو الشْـوَاشِي

وَأَنْتَ يَا مَنْ يقولُ كَلاَمَ الْعَارِ فِي حَقِّ غَيْرِك ، وتَغتابُ الناسَ فِي غَيبَتِهم ، وتَكْذِبُ عَلَيْهم ظُلْمًا وجُورًا ، وَيَطولُ لِسَانُكَ بِكَلاَمِ السُّوءِ والْخُبْثِ فِي سِوَاك ، كَيْفَ تَظُنّ أَنَّ كَلاَمَك المُرَّ هَذَا سَيَحْلُو ؟ إنَّكَ سَتَبْقَى مَتَاعًا سَاقِطًا وَشَخْصًا بَغِيضًا ، وَقَدْ تَمْرَضُ فَلاَ يَزُورُكَ أَحد ، لأنَّ الناسَ سَيَتَذَكَّرُونَ عَلَى الدَّوَامِ عَارَك :

يَـا قَـايِـلْ الْعَـارْ ** كِيـفَـاشْ يَـحْـلَى كْـلاَمَـكْ ؟
تَـمْـرَض ولا عْـدت تـتْـزَارْ ** ويَـتْـفَـكـرُوا الـنَّـاسْ عَـارَكْ

وَكَلِمَةُ «كِيفَاشْ» الْوَارِدَةُ فِي الشَّـطْرِ الثَّانِي مِن الْبَيْتِ الأَوَّلِ مِنْ هَـذَا الرُّبَاعِيّ تَعْنِي فِي اللغةِ العامّيَّة ... مَـدْلُولَ « كيف ؟ » . وتَعْبِيرُ « **كِيفَـاشْ يَحْلَى كْلاَمَك** ؟ » يَعْنِي : كَيْفَ يَحْلُو كَلاَمُك ؟ وَهُوَ اسْتِفْهَامٌ اسْتِنْكَارِيّ ، أَيْ إنَّ كَلاَمَكَ لاَ يَحْلُو أَبَدًا .

وَتَمْتَدُّ تَأَمُّـلاَتُ **عَبْدِ الرَّحْمن المجـذوب** ، وَتَتَعَدَّدُ مَـوَاضِيعُها ، وتتلوّن مَجَالاَتُها ... وَهَذَا رُبَاعِيٌّ آخَرُ بَلِيغٌ فِي مَعَانِيه ، وَاقِعِيٌّ فِي مَـرَامِيه ... لَكِنْ لأَجْلِ فَهْمِهِ جيّدًا يَتَعَيَّنُ شَرْحُ الأَلْفَاظِ الْعَامِيَّةِ التِي يَشْتَمِلُ عَلَيْهَا :

ـ « **المْصَبَّط** » ، هُوَ مَنْ يَلْبَسُ « **الصُبَّاط** » فِي رِجْلَيْهِ ، أي الْحِذَائَيْنْ . وَهَـذَا اللَّفْظُ مِن الدَّخِيـلِ الأَجْنَبِيِّ الْمُسْتَعْمَلِ فِي الدَّارِجَـةِ بِبُلْدَانِ الْمَغْـرِبِ الْعَرَبِيّ . وَ« **الصُبَّاط** » عَادةً هُو الْحِذَاءُ أو الحِذَاءانِ عَلَى الشَّكْلِ الْفَرَنْجِيِّ الْمَعْرُوف . لَكِنَّ المعنَى هنا عَامّ ، فالْمَقْصُودُ مِن « **المصبَّط** » مَنْ هُوَ مُنْتَعِلٌ ، أي فِي رِجْلَيْهِ نَعْلاَنِ أَو خُفَّانِ أو حِذَاءَانِ تَقِيهِمَـا وَعْثَاءَ الْمَشْي عَـلَى الحَفَا . وَمُقَابِلُ « **المْصَبَّط** » هُوَ **الْحَافِي** .

ـ « **مادْرَى** » ، أي لا يَدْرِي ، لَيْسَ عَالِمًا وَلاَ عَارِفًا بِشَيْء .

ـ « **القطِيفَة** » هي نَوْعيَّةٌ مِن السَّجَادِ أو الزَّرْبِيَّةِ مَصْنُـوعَةٌ عَـادَةً مِن الصُوفِ الْعَالِيَةِ التِي تُسَخِّنُ مُسْتَعْمِلَها بِشَدَّةِ دِفْئِهَا وَحَرَارتِها ...

فَالْحَكِيمُ الشَّاعِرُ يَقُولُ فِي الرُباعِيّ الْمُشْتَمِلِ عَلَى تِلْكَ الأَلْفَاظ : إِنَّ الشَّخْصَ الْمُنْتَعِلَ حِذَائَيْنْ لاَ يُمْكِنُ أَبَدًا أَن يَشْعُرَ بالأَلَمِ الذِي يُقَاسِيهِ الشَّخْصُ الذِي يَمْشِي حَافِيَ الْقَدَمَيْنْ عَلَى الْحِجَارَةِ والْوَحَل ... والرِّمَالِ الْحَامِيّة . والشَّخْصُ الْمَسْرُور ، الْمُزْدَهِي ، الْفَرِح ، الذِي يَعِيشُ فِي سَعَادَةٍ وَطُمَأْنِينَةٍ لاَ يَشْعُرُ أَبَدًا بِمَا فِي نَفْسِ الشَّخْصِ الْمَهْمُوم الْحَزِين . والشَّخْصُ الذِي يَنَامُ عَلَى فِراش مُتَدَثِّرًا بِقَطِيفَةٍ مِن الصُوفِ الْعَالِيَةِ لاَمِرَاءَ فِي أَنَّـهُ فِي دِفْءٍ وَحَرَارة ... أَمَّـا الشَّخْصُ الذِي لا فِرَاشَ لَهُ ولا غِطَاء (**العـريان**) فَكَيْفَ يُمْكِنُ أَنْ يَـأْتِيَهُ النَّوم ؟

المـصـبَّـطْ مـا دْرَى بِـالْحَـافِي ⁂ والزَّاهِي يَضْحَـكْ عَـلى المْهَـمُـوم
اللِّ رَاقَـدْ عْـلَى الْقْـطِيـفَـه دَافِي ⁂ والْعَـريـانْ كِيفْ يجِيـهْ النُّـومْ؟

وَفِي الدَّعْـوَةِ إِلَى مُجَامَلَةِ النَّـاسِ وَمُعَامَلَتِهم بِـالْحُسْنَى كَيْفَمَـا اقتضت

الضَّرُورَةُ والْمَرْتَبَة ، فَتَارةً بِكَلِمَةِ الْخَيْرِ والْمُلَاطَفة ، وَتَـارةً بِالْمُكَـافَأةِ الْمَـادِّيَّةِ والإكراميَّات ... يَقُولُ عَبْدُ الرَّحْمَن المجذوب :

أَدْهَـنْ السِّـيـر يِـسِـيـرْ ** وبِـهْ تَـرْطَـابْ لَخْـرَازَه

النَّـقـبَـه تْـجِـيـب الطِّـيـر ** مـن بَـابْ سُـوس لْـتَـازَه

والإشارةُ في ذَلِك الرُّبَاعيِّ إلَى حِرْفةِ الخِرَازةِ حَيْثُ يَتَنَاوَلُ الخَرَّازُ ، أَثْنَاءَ اشْتِغَالِه بِالْجِلْد ، الْخُيُوطَ ، والْحِبَالَ الجِلْديَّةَ التِي يُسَمَّى كُلُّ وَاحدٍ مِنْها السَّيْر خَيْرُ مِثَالٍ لِفِعْلِ التَّلْيِينِ وَمَفْعُولِ الدُّهن ، إذْ بِهَذَا يُمْكِنُ تَسْهِيلُ عَمَليَّةِ الْغَرْزِ وَإدْخَالِ السُّيورِ في أَثقابها ، وكَثِيرًا مَا نَرَى الخرَّازَ يَسْتَعْمِلُ الشَّمْعَ ـ مَثَلاً ـ بِمَثَابَةِ ذَلِك الدُّهنِ الْمُلَيِّنِ فَتَحْصُلُ الرَّطَابَـة ... والتَّشْبيهُ هُنَـا مِنْ أَجْمَلِ التَّعابير : « **ادْهَنِ السِّيرِ يِسِيرِ** » ... وهو مَثَلٌ يَجْري عَلَى أَلْسِنَةِ العامَّةِ مُنْذُ أَنْ أَطْلَقَهُ ذلك الْحَكِيم ، وَقد أَكَّدَ قَوْلَهُ هَذا بِأَنَّ الطَّائِرَ يَبْحثُ عَنِ الْحُبُوبِ لِيَنْقُبَهَا مَهْمَا بَعُدَتِ الْمَسَافَات . إنَّ كُلَّ بُعْـدٍ يَهُونُ والْحَـالَةُ هَذِهِ مَـا دَامَت « النَّقْبَةُ » مُؤَكَّـدةً هناك ... وَلَوْ أَدَّى ذَلِكَ « المشـوار » إلَى قَطْعِ الْمَسَـافَةِ الْمَوْجُودَةِ مِنْ بَابِ **سُوس** ، الناحيةِ الكبيرةِ الْمَعْرُوفَة في جَنُوب المغرب ، إلى مَدِينَةِ **تازة** البعيدةِ عَنْهَا جدًّا .

تِلْك ، أَيُّهَا الْجُمْهُورُ المستمعُ الكريم ـ أَيُّها الْقُرَّاءُ الأعِزَّاء ـ فَذْلَكَـةٌ من رُباعيَّاتٍ لَعلَّها القاسِمُ الْمُشْتَرَكُ في الأَدَبِ الشَّعبيِّ الأَصِيلِ بِبُلْدَانِ الْمَغْـرِبِ الْعَربيّ . إنَّها مَعْرُوفَةٌ وسَائِرَةٌ عَلَى أَلْسِنَةِ العامَّةِ في **المغرب** ، **والجزائـر** ، **وتونس**، ولذلك فَإنَّ رِوايتَها قد تَتَغَيَّرُ قَلِيلاً بَيْنَ قُطْرٍ وآخر .

وَحَتَّى نَفْتَرِقَ وَنَحْنُ عَلَى أَجْمَلِ الْمَذَاقِ لِهَذِهِ النَّماذِجِ المنظومةِ مِن الأَدَبِ الشَّعْبِيِّ فِي هَذِهِ الْحَلَقاتِ الإِذَاعيَّةِ « المربوطةِ » عَرْضًا كِتَابيًّا وَاحدًا ، نَسُوقُ الرباعيَّاتِ التاليَةَ لِلشَّاعِرِ **عَبْدِ الرَّحمن المجذوب** ، ونَدَعُهَا تَنْطِقُ بِنَفْسِهَا عن نَفْسِهَا :

شَفتْ أَهْلِ الْمَيَّتْ فَالْمدِينَه ** يَتْخَاصْمُوا قْبَلْ الدْفِينَه
الْحَيْ مَا زَالْ يَسْمَعْ ** واللِّي مَاتْ أَدَّى لَغْبِينَه

حَوَّستْ شَرق وغَربْ ** حَتَّى لْقَاسْ لَحْصِينَه
بَنْزَرت ما شَفت مْثَلْهَا ** الْبَحَر شَاقْ لَمْدِينَه

اتْمَنِّيتْنِي طِيرْ وَنْطِيرْ ** وَعْلَى جْنَاحِي تُونسيَّه
أَنْحَطْ فِي دَارْ لَحْبَابْ ** ونْشُوفْ إذا سَالُوا عْلِيَّه

حَبِيبِي غْضَبْ وما صَبتْ لُوطَب ** بَعْدَ الْمَحَبَّه جْفَانِي
نَجِيبْ الْكَاسْ ونْصُبْ ** ونْحَدْثُو بَالْمَعَانِي

أَرْضِيتْ بِالْهَمْ ** والْهَمْ مَا رْضَى بِيَّا
حَطِّيتُو عَنْد رَاسِي ** أَصْبَحْ لِي عند رَجْلِيَّا

الْـخُـبــز يَـا الْـخُـبـز *** والْـخُـبـز هُـوَ الإفَـادَه
لَـوْ مَـا كَـانَ الْـخُـبـز *** مَـا يْـكُـونْ لاَ دِيـنْ لاَ عْـبَـادَه

يـا قَـلْب نَـكْـوِيـك بَـالنَّـارْ *** وإذَا بْـرِيـت نْـزِيـدَكْ
يـا قَـلب خَـلَّقْـت لِي الْعَـارْ *** وتْـرِيـد مَـنْ لاَ يْـرِيـدَكْ

يـا اللاَّيَمْ لا تْلُومْنِي وسْـط النَّـاسْ *** وإذَا عيْنـيـك فـالمـلاَمَـهْ فَـرَّزْني
الْفَضَّـه الصَّـافِيـه وَلاَّت نْحَـاسْ *** والثُّـوب الـواقي يَـنْـغَـزْنِـي

يَـا نَـاسْ قَـلْبِـي تْـعَـمَّـرْ *** وَمَـا صَـبـتْ لِمَّـنْ نْـعِـيـدُو
عَـدْتُـو لْنَـاس تـاخِـير الزْمَـانْ *** فِي كُـلْ كَـلْمَـه يْـزِيـدُو

يَـا وِيـلْ مَـن طَاحْ فَـالْبِـيرْ *** وَصْـعَـابْ غْـلِيـه طْلُوعُـو
فَـرْفَـرْ مَـا صَـابْ جَـنْـحِـين *** يَـبْـكِـي وَيْـنَـشْـفُـو دْمُـوعُـو

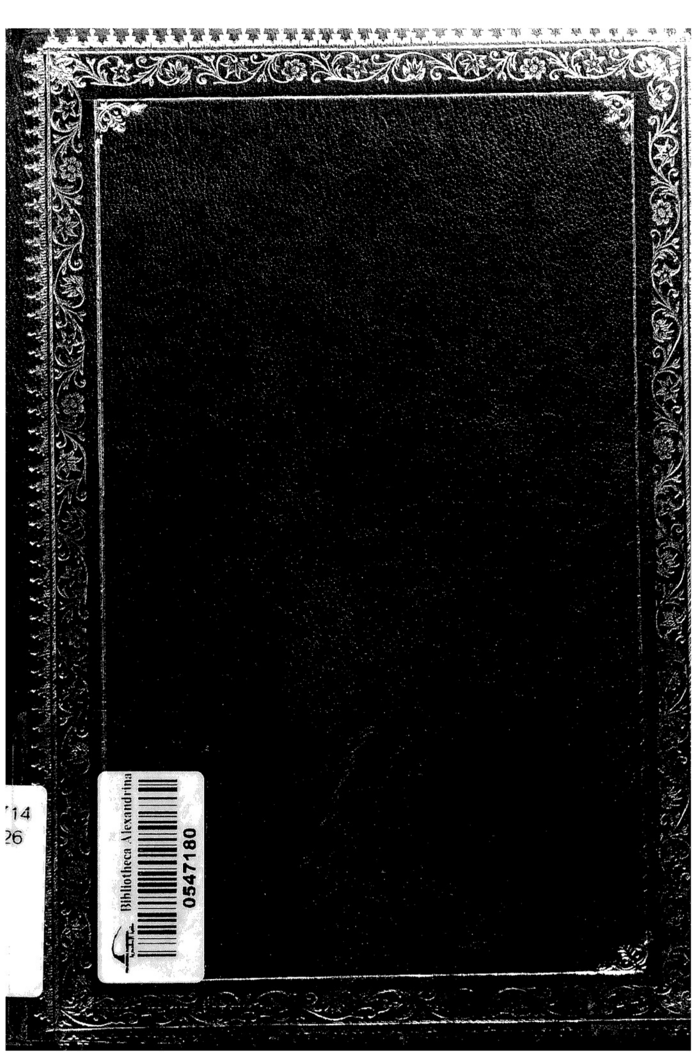
خِتَـــام

طُبِعتْ هذه الفَصْلَةُ بِعُنْوَان : رُبَاعيَّاتُ عبدِ الرَّحْمَنِ المجذوب عَبْرَ الآثير » ، من تأليف عبد الله شقرون ، في مطابع « شركة فنون الرسم والنشر والصحـافة » بـالعاصمـة التونسيَّـة ، وهي مُسْتَخْـرَجَـةُ مِن الكتـابِ الذِي أَصْـدَرَهُ المـؤلِّفُ في « منشورات اتحاد إذاعات الدول العربيَّة » تحت عنوان : الأَدَبُ الشَّعْبِيّ عَلَى أمْواج الإذاعة » ، وتولَّت طَبْعَه نَفْسُ الشركة عام 1987 بتونس .

مطبعة شركة فنون الرسم والنشر والصحافة ـ القصبة ـ تونس






Bibliotheca Alexandrina
0547180
14
26